أثر أحكام التجويد
في تصوير معاني القرآن الكريم
(التصوير الصوتي)

إعداد: أبو الحسن
محمد وصفي جلاد

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ

ثُمَّ فُصِّلَتۡ

مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

[هود: 1]

فهرس الموضوعات

مقدمة	1
تمهيد	5
نظرة العلماء إلى علاقة الصوت بالدلالة اللفظية	5
أصوات الحروف وعلاقتها بإعجاز القرآن الكريم	10
ضوابط مقترحة لاجتناب التكلُّف في استنباط أمثلة التصوير الصوتي	17
المبحث الأول: أثر أصوات الحروف في تصوير معنى الكلمة القرآنية	23
الأصوات التي تُصور الرقة والسكينة والرخاء والخفاء	24
الأصوات التي تُصور القوة والشدة أو الغلظة والتهديد والوعيد	32
أصوات الإيقاظ والتنبيه	37
الأصوات التي تُصور الحركة والاحتكاك والاهتزاز والتكرار	38
الأصوات التي تُصور الانتشار والبث	44
الأصوات التي تُصور الثقل والبطء	45
الأصوات التي تُصور طول مدة الفعل أو سعته مكانيًا	54
المبحث الثاني: أثر أصوات الحروف في تصوير جوِّ السياق وجوِّ السورة	61
تصوير المقطع الصوتي لدلالة المعنى العام في السياق	61
تصوير الفاصلة القرآنية لدلالة موضوع السورة وإيقاعها	68
خاتمة ونتائج	73

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل إلينا كتابًا مباركًا لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي خزائنه، ولا تنضب ذخائره، حتى لو كان البحر مدادًا للمفسرين والشجر أقلامهم لنفدتْ منهم الأعمار، قبل أن يُفرغوا ما فيه من المعاني والأسرار، والصلاة والسلام على النبي المختار، الذي صاغ من صحابته الأخيار، مصاحف تدب على الأرض، ليطهروها من ظلم الفجار، ويردُّوا الخلق إلى الله الواحد القهار، وبعد:

فلقد تعددتْ وجوه الجمال والجلال والإعجاز في هذا الكتاب الخالد، إذ فيه من روعة البيان ما يأخذ بألباب أهل اللغة واللسان، وفيه من أنباء الغيب ما يشهد بصدقه على مرِّ الزمان، وفيه من حِكْمة التشريع ما يسمو على كل شرائع الإنسان، وفيه من العلم آياتٌ رآها الناس في الآفاق وفي أنفسهم فتَبَيَّن لهم أنه الحق من ربهم.

وهذه دراسة قصيرة تتناول جانبًا من جوانب الإعجاز البياني في القرآن، هو إعجاز القرآن في أصوات حروفه، والتي أُحْكِمَ كلٌ منها في موضعه من كلمته، في مكانه من آيته، في ترتيبه من سورته، ثم كان لصوته مع ذلك، تناغم يعطي صورةً للكلم، وإيقاعًا للآي، تزيد الجمال جمالًا، والإعجاز إعجازًا.

وموضوع أثر أصوات الحروف وتجويدها في تصوير معاني القرآن، ليس جديدًا، بل سبق وأن تحدثتْ عنه الدراساتُ التي تُعنَى بالبلاغة القرآنية، فبعضها عرَّج على موضوع أصوات الحروف والكلمات وعلاقتها بدلالتها ومعناها في بضع صفحات لا تعدو لمحة موجزة عن الموضوع، وبعضها الآخر أفرد الموضوع بمطالب أو مباحث مستقلة استفاض فيها بالحديث عن علاقة أصوات الحروف بمعاني كلماتها.

ولمَّا كان أثر أصوات الحروف وصفاتها وأحكام تجويدها في تصوير المعنى وتجسيده، ليس مقصورًا على مواضع معدودة في القرآن الكريم، بل هو مبثوث في سائر سوره وآياته، فهو إذن موضوع يحتاج لمزيد من الدراسات التي تستقصي أمثلة جديدة، ولذا عَمَدَتْ هذه الدراسة لِرَفْدِ هذا اللون من بلاغة القرآن بأمثلة جديدة، بعد الاسترشاد والاستئناس بما ذَكَرَتْهُ الدراساتُ السابقة، ثم إن معظم الدراسات السابقة كانت تكتفي بذكر الأمثلة التي تُثبتُ التناغم بين معنى الكلمة وأصوات حروفها، بالاعتماد على الانطباع الداخلي للدارس أو الكاتب وعلى ذوقه اللغوي السليم، فجاءت تلك الأمثلة خالية من تحليل علمي يقنع القارئ، في حين تسعى هذه الدراسة لإثبات صحة الانطباع النفسي بتحليل صوتي يعتمد على مخارج الحروف وأصواتها وصفاتها وأحكام تجويدها، وهو ما يمنح القارئ مفاتيحَ وأُسسًا تعينه على أن يقيس على تلك الأمثلة إن شاء التدبر والتأمل في القرآن.

كما تحاول هذه الدراسة اقتراح ضوابط تقي من التَّكَلُّف والمبالغة؛ فهذا الضرب من الإعجاز القرآني، متعلقٌ بالذوق السمعي، وقد يختلط الذوق السمعي بالعاطفة الدينية فتُساق أمثلة غير دقيقة، يظهر فيها التَّكَلُّف والمبالغة، لذا حاولتُ أن أصوغ مجموعة من الضوابط التي ينبغي مراعاتها، ولم أجدْ –بحدود اطلاعي– من وضع ضوابط لهذا الأمر، إلا ما جاء مبثوثًا في ثنايا كلام بعض المصنفين على ندرته وقلته، فاستللتُه ثم أضفتُ إليه، وأفردتُه بعنوان مستقل ليأخذ حظه من العناية والاهتمام.

هذا والله وحده المُوفِّق ومنه الهداية والسداد

وإليه المَرجع والمُنْتهى

تمهيد

لا بد قبل البدء ببيان أثر تجويد الحروف في بيان معاني الكلمات، من تمهيد نتطرق فيه للمقصود بالتصوير الصوتي، ولنظرة العلماء قديمًا وحديثًا إلى علاقة الأصوات بالمعاني.

أما المقصود بمصطلح (التصوير الصوتي) فهو: عملية تجسيد الصوت لمعنى الكلام، وهو ما يسميه العلماء الغربيون (الأونوماتوبيا)[1].

وبإمكاننا أن نقول: إن **الصورة الصوتية هي**: هيئة أو صفة يتخيلها السامع في ذهنه، ناجمة عن طبيعة صوت الكلام، فكما أن التمثال يتركب من قطعٍ وأجزاءَ يُجمع بعضها إلى بعض، فكذلك الصورة الصوتية؛ هي تراكُبُ أصوات حروف الكلمة أو الجملة، الذي يعطيها صورة أو هيئة مُتَخَيَّلَةً في الذهن، فتنقل الكلمة من معنى نظري، إلى معنى مُجسد مُصور من خلال الصوت، فكأن صوت الكلمة يقوم برسم صورتها في الذهن.

نظرة المُتقدمين والمُحْدَثين إلى علاقة الصوت بالدلالة اللفظية

تحدث العلماء قديمًا وحديثًا، عن مدى مناسبة أصوات حروف الكلمة للمعنى الذي تدل عليه، فمنهم من قال إن للأصوات ارتباطًا بمدلولاتها، وأن أهل

---

(1) يُنظر ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص222.

كل لغة وضعوا لكل صيغة لفظية صوتًا يحاكيها ويُعبر عنها، ومنهم من وقف على النقيض تمامًا، فزعموا أن أهل كل لغة تواضعوا واصطلحوا على مدلول كل لفظة، دون أن يكون لمدلولها ارتباط بأصواتها إلا ما اتفق عن غير قصد.

وقد تَتَّبع الدارسون كلام المتقدمين حول علاقة أصوات حروف الكلمات بمدلولاتها، فوجدوا ما يشير إلى اهتمامهم بهذه العلاقة، فمثلا يقول الفراهيدي (ت: 170هـ): «وأما الحكايةُ المُضاعفَة فإنها بمنزلة الصَّلْصلة والزَّلْزِلَةِ وما أشبهها، يتوهمون في حُسن الحركة ما يتوهمون في جَرْس الصوت... ويَجيء منه كثير مختلفاً نحو قولك: (صَرَّ الجندب صريرًا وصرصر الأخطب صَرْصَرَةً)، فكأنّهم تَوَهَّموا في صوت الجندب مدًا و توهموا في صوت الأخطب ترجيعًا»[1]، وقال أيضًا: «والقَهْقَهَةُ في قَرَب الوِرْد مُشْتَقٌّ من اصطدامِ الأحمالِ لعَجَلةِ السَّيْر، كأنّهم توهّموا لِحِسّ ذلك جَرْس نغمةٍ فضاعفوه»[2]، وكذلك سيبويه (ت: 180هـ) يقول: «ومثل هذا الغليان، لأنه زعزعة وتحرك... ومثله الخطران واللمعان، لأن هذا اضطراب وتحرك»[3]، فكانت هذه إشارات منهم تدل على لحظهم العلاقةَ بين صوت الكلمة ومدلولها.

(1) الفراهيدي، الخليل بن أحمد: **العين**. ج1. ص55-56.
(2) الفراهيدي، الخليل بن أحمد: **العين**. ج3. ص341.
(3) سيبويه: **الكتاب**. ج4. ص14.

لكن أكثر من تحدث عن فكرة العلاقة بين صوت اللفظ ومدلوله هو ابن جنيّ (ت: 392هـ)، حيثُ أفرد لبلورة هذه الفكرة أربعةَ أبواب في كتابه الخصائص هي: باب الاشتقاق الأكبر، وباب الإدغام الأصغر، وباب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وباب إمساس الألفاظ أشباه المعاني، ولا ضير في ضرب بعض الأمثلة التي ذكرها ابن جني لتتضح الفكرة:

يذكر ابن جني أن الكلمات التي فيها تكريرًا للفعل، جَعَلتْها العرب على وزن «فَعْلَلَة»، مثل: زعزعة وصلصلة وصعصعة فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر[1]، ويقول أيضا: «إن كثيرًا من هذه اللغة وجدته مضاهيًا بأجراس حروفه أصواتَ الأفعال التي عَبَّر بها عنها؛ **ألا تراهم قالوا (قضم) في اليابس، و(خضم) في الرطب؛ ذلك لقوة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف**»[2].

ومن المؤيدين لهذه الفكرة أيضا ابن الأثير(ت: 637هـ)، والذي عَنْوَنَ لها بـ (قوة اللفظ لقوة المعنى)[3]، **وابن القيم أيضا (ت: 751هـ) حيثُ يقول: «والمناسبة الحقيقية معتبرة بين اللفظ والمعنى طولًا وقصرًا وخفةً وثقلًا وكثرة وقلة وحركة وسكونًا وشدة ولينًا**... وانظر إلى لفظ بُحْتُر وما فيه من الضم

(1) يُنظر ابن جني: **الخصائص**. ج2. ص155.
(2) ابن جني: **الخصائص**. ج1. ص66.
(3) يُنظر ابن الأثير: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. ج2. ص56.

والاجتماع لما كان مسماه القصير المجتمع الخلق، وكذلك لفظة الحديد والحجر والشدة والقوة ونحوها، تجد في ألفاظها ما يناسب مسمياتها، وكذلك لفظا الحركة والسكون مناسبتهما لمسمياتهما معلوم بالحس... وكذلك الغضبان والظمآن والحيران، وبابه صيغ على هذا البناء الذي يتسع النطق به ويمتلئ الفم بلفظه؛ لامتلاء حامله من هذه المعاني، فكان الغضبان هو الممتلئ غضبًا، الذي قد اتسع غضبه حتى ملأ قلبه وجوارحه»[1]، كما تحدث عن هذه العلاقة الإمام السيوطي (ت: 911هـ)، تحت عنوان (المناسبة بين اللفظ ومدلوله)[2].

ويؤيد فكرة العلاقة والمناسبة بين مدلول الألفاظ وأصواتها من المُحْدَثين؛ أحمد فارس الشدياق، وصبحي الصالح، ومؤيد عبد الله العلايلي، وعباس العقاد، في حين ينكرها كل من؛ عبده الراجحي، ومصطفى مندور، ومحمود فهمي حجازي[3].

وظاهرة العلاقة بين أصوات الألفاظ ومدلولها ليست مقتصرةً على اللغة العربية فحسب، بل هي موجودة في سائر اللغات –وإن كانت في العربية أكثر من غيرها–، ولذا نجد الغربيين أيضًا يتحدثون عن هذه الظاهرة تحت مسمى

---

(1) ابن القيم: **بدائع الفوائد**. ج1. ص108.

(2) يُنظر السيوطي: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**. ج1. ص40.

(3) يُنظر بني دومي، خالد قاسم: **دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم**. ص61–70.

(الأنوموتوبيا)[1]، والتي سبق تعريفها، ويبدو أن الغربيين استفادوا كثيرًا مما توصل له العرب في علم الصوتيات وإن اختلفت المسميات[2].

ويبدو أن الخلاف في قضية العلاقة بين صوت اللفظة ومدلولها عند الغربيين أوسع منه عند علماء اللغة العربية[3]، ذلك أن اللغة العربية هي أفصح اللغات وأوسعها وأغناها، يشهد لذلك الاستقراءُ، **فإذا كانت أمثلة التوافق بين صوت الكلمة ومعناها محدودة في غير اللغة العربية، فإن توافرها في العربية يبلغ حد الاستفاضة**، ما دفع كثيرًا من العلماء إلى الاعتقاد بأن كل الكلام العربي وُضع على مراعاة الصوت للمعنى.

بيدَ أنه ليس من أهداف هذا البحث استقصاءُ قضية الخلاف تلك، إنما الذي يهمُّ هو؛ ملاحظة تَخَيُّر القرآن وانتقاؤه للألفاظ التي تتناسب أصوات حروفها مع مدلولات ألفاظها، فكما أن القرآن تَخَيَّر من ألفاظ العرب أفصحَها وأجزلَها وأعذبها وترك الوحشي منها، فكذلك اختار من الألفاظ ما يتوافق بناؤه الصوتي مع دلالته المعنوية، فجاءت ألفاظه مُحكمة من ناحية المعنى والصوت، وهو أمر ظاهر يحسُّ به كل ناطق للعربية له أدنى نصيب من الذوق السليم.

---

(1) يُنظر ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص222.

(2) يُنظر الصغير، محمد حسين علي: **دلالة الصوت اللغوي في القرآن**. ص16.

(3) يُنظر بني دومي، خالد قاسم: **دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم**. ص50-56.

أصوات الحروف وعلاقتها بإعجاز القرآن الكريم

بإمكان المُتَتَبِّع لكلام العلماء من أهل التفسير واللغة، أن يلاحظ التدرَّج في تناولهم ألوان الإعجاز البياني في القرآن الكريم، فنجدهم أولًا يتحدثون عن بيان القرآن وإعجازه وفصاحته في سوره وآياته عامة، فيكتفون بالحديث عن احتوائه: «أفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مُضمنًا أحسنَ المعاني»[1]، ثم يأتي من يُبرز مظهرًا أدقَّ في الإعجاز، متناولًا فصاحة القرآن وبيانه المعجز في الجملة الواحدة وحسن تركيبها وسبكها، فيما عُرف بنظرية النظم التي أشار لها الخطابي أولًا، ثم تناولها عبد القاهر الجرجاني بالشرح والتفصيل، ثم كان من تناول المفردة القرآنية الواحدة، فتحدث عن جلالها وبهائها وإعجازها في مكانها من جملتها، في موضعها من آيتها، في ترتيبها من سورتها، حتى قال ابن عطية الأندلسي: "**كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد**"[2].

وقد الْتَقَطَ المُحْدَثون من المهتمين بإعجاز القرآن، بعضَ إشاراتٍ بثَّها المتقدمون في مصنفاتهم عن صوت الحرف في القرآن، فبلوروا من ذلك نظرة أعمق في إعجاز القرآن الكريم، فتحدثوا عن الحرف في الكلمة، ثم عن الصوت في الحرف، بعد أن كان الحديث عن الكلمة في الجملة والجملة في الآية.

---

(1) الخطابي: **بيان إعجاز القرآن**. ص27.

(2) ابن عطية: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. ج1. ص52.

وهكذا تدرجوا من الحديث عن إعجاز الآية في السورة، ثم إعجاز الجُملة في الآية، ثم إعجاز الكلمة في الجملة، ثم إعجاز الحرف في الكلمة والصوت في الحرف.

وكان من أبرز من أظهر هذا اللون من الإعجاز البياني القرآني (إعجاز الحرف وصوته في الكلمة) مصطفى صادق الرافعي، الذي تحدث عن جُمل القرآن وكلماتها، وعن الكلمات وحروفها، وعن الحروف وأصواتها، حيثُ يقول عن إدهاش القرآن وإعجازه للعرب في نظمه الموسيقي: «فلما قُرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جُمله، ألحاناً لغوية رائعة؛ كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها... لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبةِ بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق والتفشي والتكرير وغير ذلك»[1].

وكما أن المتقدمين تحدثوا عن اللفظ القرآني وإحكامه في مكانه بحيثُ: «إذا أُبدل مكانه غيره، جاء منه إما تَبَدُّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة»[2]، فكذلك يتحدث الرافعي عن موضع الحرف من الكلمة، وإحكامه في موضعه منها فيقول: «**فتألفتْ كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أُبدل بغيره أو أقحِم معه حرف آخر،**

(1) الرافعي: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**. ص148.

(2) الخطابي: **بيان إعجاز القرآن**. ص27.

لكان ذلك خللاً بَيِّنًا، أو ضعفًا ظاهرًا في نسق الوزن وجَرْس النغمة، وفي حِسِّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرَج وتَسانُد الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت هُجْنَةً في السمع، كالذي تنكره من كل مَرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها»[1].

وليس الرافعي وحده من تحدث عن بلاغة الحرف في موضعه من الكلمة القرآنية، ولكني اقتصرتُ على نقل كلامه لروعة بيانه، فأغنى بجماله وفحواه عما سواه، وسيردُ في المبحث الأول من هذا البحث، كلامٌ لكثير من العلماء المُحْدَثين والمعاصرين عن بلاغة الحروف في مواضعها، ودلالة أصواتها على معاني كلماتها.

ولعل سائلًا يسأل: ما الدليل على هذا اللون من إعجاز القرآن البياني؟

والجواب: دليل ذلك هو ما يجده ويتذوقه كل قارئ للقرآن، ولو كان له أدنى الحظ من الفطرة اللغوية والذوق الأدبي، فهو أمرٌ ملموس، يُصدِّقه الواقع الحسيّ والذوق السمعيّ في كلٍّ منا، **بل إن بعض العوام يلمس ذلك ويشعر به وإن لم يستطع التعبير عنه، وكثيرة هي الألفاظ القرآنية التي يصل مفهومها –**

(1) الرافعي: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**. ص150.

أو ظلال معانيها- بمجرد تلاوتها، دون الحاجة للرجوع لقاموس أو معجم، وما ذاك إلا لمناسبة صوتها لمعناها، وكأنما صوت حروفها يرسم صورتها.

وهو أمر وجده العرب الأوائل الذي سمعوا القرآن، وقد عبر عنه الوليد بن المغيرة حين استمع للقرآن من سيدنا محمد ﷺ فقال: «والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مُغدقٌ أسفله، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو، وما يعلى»[1]، وكلمة الوليد هذه، كلُّها تعبير عن التناغم الموسيقي القرآني، الناجم عن إحكام كل حرف في موضعه وتناسب صوته مع سياقه، وهي شهادة تمثل: «نظرة فنية عميقة، ووعيًا للأثر الموسيقى، فالرجل مُدركٌ بفطرته ميزات ما يسمع واختلافه عما عهد، فيقدّم رأيًا معياريًا، إنه يريد بالحلاوة سهولة النطق بمفردات القرآن، وهذا يتأتّى من جنس الحروف ونسقها وانسيابها ولينها، وهو رقيق حلو لدى القارئ والسامع... «مثمر أعلاه»، فإذا كان هذا العلوّ هنا هو اللحن المختوم في الفواصل... فإن «المغدق أسفله» هو الموسيقا الداخلية المبثوثة فيما قبل الفاصلة... وكأنّ «الطلاوة» ذلك التأنّق الفائق الحسن»[2].

---

(1) أخرجه عبد الرزاق: **تفسير عبد الرزاق**. ج3. ص362. والطبري: **جامع البيان في تأويل القرآن**. ج24. ص24.

(2) ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص82-83.

وإذا كان الوليد قد أحسن التعبير عما يجده في نفسه، فإن كثيرين –قبله وبعده من المشركين ومن المسلمين– أحسُّوا بهذا التناغم الصوتي، ولكنهم لم يتمكنوا من توصيف حقيقته، وقد نقل الخطابي رأيًا لطائفة من العلماء يرون إعجاز القرآن في شيء لا يمكن تحديده فقال: «قالوا: وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أَثره في النفس... قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معًا فصيحان، ثم لا يُوقَف لشيء من ذلك على علّة»[1]، فما هي تلك العذوبة والهشاشة التي نجدها لبعض الكلام دون بعضه، إلا سلاسته الصوتية، وعذوبته الإيقاعية، وانسجامه الصوتي؟!

ويبدو أن المتقدمين من العلماء مجمعون على التناغم الموسيقي في القرآن الكريم، ولكنهم –كما يذكر أحمد ياسوف– تجنبوا كلمة (الموسيقا) لارتباطها بآلات العزف واللهو والطرب، فعبَّروا عن الجمال الصوتي في القرآن بتعبيرات من مثل: العذوبة والرونق والسلاسة والملاحة والفخامة[2]، والرشاقة.

ويُدلل الزرقاني على ذلك بما سماه (**المسحة الصوتية**) أو النظام الصوتي للقرآن، حيثُ قال: «ونريد بنظام القرآن الصوتي، اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومدَّاته وغُنَّاته واتصالاته وسكتاته اتساقًا عجيبًا وائتلافًا رائعًا،

(1) الخطابي: **بيان إعجاز القرآن**. ص24.

(2) ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص93.

يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور، وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية وهي مرسلة... كأن يكون السامع بعيدًا عن القارئ المُجَوِّد، بحيثُ لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزًا بعضها عن بعض، بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة المؤلفة من المدات والغنات والحركات والسكنات والاتصالات والسكتات... يشعر من نفسه ولو كان أعجميًا لا يعرف العربية، بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر؛ لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها، فلا يفتأ السمعُ أن يملَّها والطبعُ أن يمُجَّها... وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي هو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن»[1].

الزركشي من أوائل من تحدث عن التناسق الصوتي في القرآن

وبإمكاننا أن نجد سندًا من محاولات العلماء المُتقدمين الكشفَ عن العلاقة بين الحروف وصفاتها وارتباط ذلك بموضوعات السور ومعانيها، ما يزيدنا ثقة بأهمية هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ومثال ذلك: تحليلاتُ الزركشي للسرِّ من افتتاح سورة قاف بالحرف (ق)، فهو يرى أن السورة مبنية على الكلمات القافية ويتكرر فيها كثيرًا ذكر (القرآن) و(الخلق) و(القول) و(قُرب) الملائكة من البشر و(الرقيب) والعتيد و(السابقين) من الأمم و(القرين) و(الإلقاء)

(1) الزرقاني، محمد عبد العظيم: **مناهل العرفان في علوم القرآن**.ج. 2. ص309-304.

في جهنم و(التقدم) إلى الجنة و(المتقين) و(القلب) و(القرون) الماضية و(التنقيب) في البلاد ، و(القتل) و(تشقق) الأرض و(إلقاء) الرواسي و(بسوق) النخل و(الرزق) وذكر (القوم)، ثم يذكر الزركشي مناسبة تلك المعاني كلها، لصفات الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح وهي كلها صفات حرف القاف. أما عن افتتاح سورة صاد بالحرف (ص)، فيرى أن سر ذلك: اشتمالها على ذكر أنواع الخصومات؛ بدءًا **بخصومة** الكفار مع سيدنا محمد ﷺ، ثم **خصومة** الخصمين أمام النبي داود ﷺ، ثم **خصومة** أهل النار، ثم **اختصام** الملأ الأعلى، ثم **تخاصم** إبليس واعتراضه على ربه[1].

ولا بد من التذكير بأن الانسجام بين أصوات الحروف ومدلولاتها ليس مقصورًا على القرآن الكريم، بل هو موجود في كثير من مفردات العربية خارج القرآن، ولكن لا يتوهمنَّ عجول أن في ذلك تشويشًا على هذا الوجه من إعجاز القرآن، فإن إعجاز القرآن في هذا الوجه، ليس من تضمنه تلك المفردات مجرَّدة هكذا، وإنما في تَخَيُّرها في مواضعها وإحكامها في سياقها، بحيثُ لو أُبدل شيء مكانها لأصبح النظم نشازًا في صوته، خداجًا في معناه، **وكما أن الألفاظ الفصيحة موجودة في غير القرآن لكن على غير وجه معجز، فكذلك الألفاظ التي تنسجم أصواتها مع مدلولاتها، موجودةٌ في غير القرآن، ولكن من دون أن يكون لها ذلك الوجه الإعجازي، وكما أن الشمس لا يُجَلِّيها إلا الصبح، فلا**

(1) يُنظر الزركشي: **البرهان في علوم القرآن**. ج1. ص169.

يظهر إشراقها إلا من الأرض، فكذلك أمثال تلك المفردات التي دلَّ صوتها على معناها، لا يكون إعجازها إلا من انتظامها في فَلَكِها من آيات الكتاب العزيز.

ضوابط مقترحة لاجتناب التكلُّف في استنباط أمثلة التصوير الصوتي

كثيرًا ما حملتْ العاطفةُ الدينية الخالية من الضوابط العلمية المنهجية، كثيرًا ما حملتْ أصحابَها على التَّكَلُّف والمبالغة في استنباط ما يُحبب الناس بدينهم وقرآنهم ونبيهم، وهم وإن كان دافعهم حب الإسلام، إلا أن أَمْثِلَتَهُم التي يتكلفون استنباطها أو نقلها، قد يعود أثرها عكسيًا، فكم من حديث نشره بعض الدعاة في الآفاق، تَبَيَّن لاحقًا أنه موضوع مكذوب؟! وكم من كلام عن إعجاز القرآن، لا يخفى على أهل الذِّكْر أن فيه ليًّا لأعناق الآيات، ثم تبين بعد الفحص والتدقيق أنه قائم على بحث علمي مكذوب، أو نظرية لمَّا تثبتْ صحتها بعد؟! ومثل تلك التكلفات والمبالغات تجدها أيضًا في سائر أنواع العلوم الشرعية.

وكثيرًا ما عَمَد أصحاب الأهواء والشبهات إلى تلك الأمثلة الممجوجة المتكلفة، فنقلوها للبسطاء ليستروا بها عنهم أمثلةً ناصعة صادقة واضحة، وليوهموهم أن كل ما يُقال في روعة الإسلام أو إعجاز القرآن، إنما هو على الشاكلة الأولى المُتكلفة، فحصدوا بسبب من خبثهم وبسبب من مبالغات بعضنا شكًّا في الدين وإلحادًا.

فلا بد إذن من ضوابط منهجية، تقي من التكلفات والمبالغات السمجة الباردة، ومن هذه الضوابط فيما يخص إعجاز القرآن في أصوات حروفه وكلماته ما يأتي:

1- الضابط الأول: الاعتماد على أُسُس علم التجويد لتفسير الجمال الموسيقي في القرآن، بناء على صفات الحروف ومخارجها وما يتعلق بالأداء الصحيح لتلاوتها، وعدم الاكتفاء بالانطباع النفسي الذي يجده القارئ في نفسه[1]؛ لئلا تصبح دعوى المناسبة بين صوت الكلمة الموسيقي ودلالتها المعنوية، مجرد دعوى بلا برهان، ولأن الانطباع النفسي قد يختلف من قارئ لآخر، فلا بد له من دليل علمي لتقنع به من لم يجدْ ذلك الانطباع في نفسه.

فمثلًا أكثر الأستاذ سيد قطب –رحمه الله– من الاهتمام بالجَرْس الصوتي للألفاظ وعلاقته بالمعنى، «وإن مال في كثير من المواضع إلى الغموض والذاتية المبهمة، فنقع على تحليل شخصي يناسب نفسية الباحث فقط»[2]، وليس المقصود من هذا الكلام أن ما تفضل به سيد قطب من مناسبة جَرْس الألفاظ لمدلولها غير صحيح، وإنما المقصود أنه كان يتركها لذوق السامع دون أن يسندها بتحليل صوتي مُقنع وفق أُسُسِ علم التجويد أو علم الصوتيات.

---

(1) يُنظر ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص237.

(2) السابق. ص216.

2- **الضابط الثاني: عدم التعجل بدعوى مناسبة صوت الكلمة لمعناها في القرآن لمجرد وجود صفة واحدة من صفات الشدة أو الهمس أو ما شابه،** فإن الثقة في صحة المناسبة بين صوت الكلمة ودلالتها، يأتي من تراصف عدة حروف تخدم ذات الفكرة، أو توافر عدة عوامل وأسباب تؤيد ذلك، فإن تظاهرت مجموعة من الصفات التي تصور معنى الكلمة صوتيًا قلنا بذلك، وإلا فلا داعي لها.

فمثلا: النتيجة التي توصل لها أحمد بدوي في ثقل يوم القيامة وشدته، والتي يصورها صوتيًا حرف الطاء الثقيل في كلمة (قمطريرًا) هي نتيجة صحيحة ولا شك، ولكن اقتصاره في تحليلها على ثقل حرف الطاء لا يكفي، واقتصاره على ذلك في تحليله قد يدفع القارئ لاعتبار الثقل في كلمات قرآنية أخرى ليس فيها ثقل، ويعقب الأستاذ أحمد ياسوف على ذلك قائلًا: «ولا شكّ في أن ثقل الكلمة أو الأصح قوّة تعبيرها، يُستمد من مجاورة الطّاء للميم الساكنة والرائين، ومثل هذا التركيب لا يرد في مفردة أخرى في القرآن، وإلا لكان الطّاء قد أثقل مئات الكلمات القرآنية من غير أن توحي بمعنى الثّقل أو العنف مثل: الطّير، طالوت، طلع، وغيرها، وربّما كان يريد في كلامه أهمية إضافة الطاء إلى مجموعة خاصة تتألف من الميم والقاف والرائين»[1].

(1) يُنظر ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص299.

3- الضابط الثالث: محاولة استقراء باقي آيات القرآن المتعلقة بالنتيجة التي يُتوصل لها، فإنْ اطَّرد الأمر في سائر الأمثلة، وإلا فلا داعي له.

ومع أن الأستاذ شملول ذكر في كتابه القيم (إعجاز رسم القرآن) العديد من اللفتات البديعة التي تظهر دور أحكام تجويد القرآن في تصوير معاني الآيات، إلا أنه كان يتعجل أحيانًا في تعميم القاعدة قبل الاستقراء التام، فمثلًا يذكر أن أي مدٍّ في القرآن، يأتي للدلالة على تفخيم الكلمة وزيادة معناها، ويمثل على ذلك بما جاء في (سورة الكافرون): ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، فيذكر أن جملة (ما عبدتم) خلتْ من المد للدلالة على تحقير ما يعبدون، بينما جاء المد في جملة (ما أعبد) للدلالة على تعظيم ورفعة ما يعبده محمد ﷺ[1]، ولكن استقراء باقي مواضع القرآن الكريم ينقضُ هذا التعميم، إذ تجدْ -على سبيل المثال- في سورة الأنعام، قولَ إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾ [الأنعام: 81]، وبحسب القاعدة التي ذكرها شملول فإن المد في جملة (ما أشركتم) يقتضي تعظيم ما يعبده المشركون، وهذا محال.

ومثل ذلك أيضا: استعجاله في التعميم، حين زعم أن حكم الإظهار الحلقي يأتي للدلالة على حدوث الفعل بسرعة فائقة لأنه لا توجد غنة، ويمثل

(1) يُنظر شملول، محمد: **إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة**. ص202-203.

على ذلك بآيات من سورة الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7، 8]، فيرى أن (ذرةٍ خيرا) خلتْ من الغنة بسبب الإظهار، وأن هذا يدل على عجلة في النطق تناسب سرعة الْتصاق ثواب الخير بذرة الخير، بينما تجد الغنة في (ذرةٍ شرا) وفي هذا تأنٍّ في النطق بسبب الغنة، يماثل الإمهال الذي يعطيه الله للإنسان قبل إنزل جزاء الشر به[1]، لكن عند استقراء أمثلة أخرى، نجد قاعدته غير مُطَّرِدة، فمثلًا في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: 82] نلاحظ وجود أربع غُنن فيها، وهذا يقتضي التمهل في إلقاء الحجارة عليهم –بحسب قاعدته–، بينما المقام والسياق يقتضي السرعة في الإلقاء بعد أن حق العذاب عليهم. وما أكثر الأمثلة على حكم الإظهار، والتي لن تجد تحليلًا يُسعفك في بيان وجه السرعة أو التمهل فيها، مثل: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِم﴾ [الأنعام: 87] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ [المؤمنون: 25]، وغيرها كثير.

ولا داعي أيضا لتعميم القول بأن صوت القلقلة «يعطي معنىً واسعًا للكلمة... أو تأكيدًا للكلمة»[2]، لأن استقراء بعض أمثلة القرآن في القلقلة يخرم

(1) يُنظر السابق. ص205–206.

(2) السابق. ص216.

القاعدة، أو سيحملنا على التكلف والمبالغة؛ فأين سعة المعنى أو التأكيد في كلمة (الجُبّ) من آية: ﴿ **وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ** ﴾ [يوسف: 10]؟!!

4- الضابط الرابع: محاولة إجراء مقارنات لفظية تُثبت مناسبة اللفظ القرآني لدلالته وسياقه، فعند الحديث عن مناسبة صوت لفظة قرآنية معينة لدلالتها، ولإثبات دقة اختيار اللفظة ومناسبتها لسياقها دلالة وصوتًا، يَحْسُن أن نجرب استبدالها بمفردات أخرى تشبه معناها، ليظهر من خلال تلك المقارنة دقة المفردة التي اختارها القرآن، وهذه المقارنة إما أن يثبت من خلالها دقة التحليل الصوتي الذي وصل له المُتَدَبِّرُ المُتأمل في القرآن، أو تُثبتُ أن في تحليله تَكَلُّفًا أو مبالغة، وعندها يبذل مزيدًا من التأمل والتفكر للبحث عن السبب الأدق لاستخدام القرآن تلكَ اللفظة، وقد اتبعنا هذا الأسلوب في كثير من الأمثلة التي سيقتْ في هذا الدراسة.

5- **الضابط الخامس:** التزود بقدرٍ كافٍ من علم التفسير وأصوله، لئلا يُتَمَحَّل ربط مخالف لمقتضى تفسير الآيات، أو تُتكلف علاقة ينبو عنها السياق.

المبحث الأول

أثر أصوات الحروف في تصوير معنى الكلمة القرآنية

معلوم أن لكل حرف في العربية –وفي سائر اللغات أيضًا– مخرجه الخاص به، وهو وإن اشترك مع غيره من الحروف في ذات المخرج، تبقى له صفات تميزه في مخرجه عن الحروف التي تشاركه، وتميز الحرف في مخرجه وصفاته، يجعل له صوتًا خاصًا به يميزه عن غيره من أصوات الحروف.

وحين تتراصف مجموعة من الحروف المشتركة في صفات محددة، فإنها تؤدي –في كثير من الأحيان– وظيفة صوتية تُقرِّب المعنى، أو ترسم ظلاله في ذهن السامع، وبإمكاننا أن نجد في الكلمة تراصفًا لأصوات الشدة، أو تعاورًا لأصوات الرخاء، أو تعاقبًا لأصوات الحركة والاضطراب، بما يُناسب مدلول الكلمة ذاتها.

وبناء على ذلك، فقد وَزَّعْتُ أنواع تلك الأصوات في سبعة مطالب، ثم استشهدتُ على كل منها ببضعة أمثلة، وقد يتكرر في بعض المطالب أنواع من صفات الحروف، سبق الحديث عنها في مطالب سابقة، وهو تكرار اضطررتُ إليه لاشتراك الحروف في بعض الصفات، بحيث يصعب تفريقها عن بعضها البعض، فلا مناص من تكرار ذكر بعض صفات الحروف في عدة مطالب.

وقد اعتمدتُ في تحديد صفات الحروف ومدى قوتها أو ضعفها، وما يتعلق بكيفية نُطقها، وطبيعة مخارجها، وأصواتها، على أصول علم تجويد القرآن الكريم، ولم أُسند جميع ما أذكره من قواعد هذا العلم لأصولها في مصادرها؛ وذلك لاشتهارها بين المهتمين بعلوم القرآن بَلْه المختصين، وإنما اكتفيتُ بإسناد بعض ما قد يخفى، أو اختُلف فيه.

المطلب الأول: الأصوات التي تصور الرِّقة والسكينة والرخاء والخفاء

حين تجتمع صفات الهمس والرخاوة واللين في حرف واحد، أو تتكرر الحروف المهموسة والرخوة واللينة في كلمة واحدة، فإنها تُسهم معًا في تجسيد صور صوتية، تناسب مدلول اللفظ ومعناه، ومن الأمثلة التي توضح ذلك:

❁ **أولًا: كلمة (رِكْزًا)** في ختام سورة مريم: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا**﴾ [مريم: 98] والرِّكز هو الصوت الخفي[1]، وفي معلقة لبيد:

"وَتَوَجَّستْ ركز الأنيسِ فَرَاعَها ... عن ظهرِ غَيْبٍ، والأنيسُ سَقَامُها"[1]

(1) الزجاج: **معاني القرآن وإعرابه**. ج3. ص347.

والآية تُصور انتقال الأمم والقرون الكافرة من حالة المرج والهرج والبطر والحركة والضجة، إلى الصمت المفاجئ بعد أن أهلكها الله، وعند تلاوة الآية: «يسبح خيالك مع الشخوص التي كانت تدبُّ وتتحرك، والحياة التي كانت تنبض وتمرح، والأماني والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع، ثم إذا الصمتُ يُخَيِّم، والموت يَجثم، وإذا الجُثث والأشلاء والبِلى والدمار، لا نَأْمَة، لا حسَّ، لا حركة، لا صوت»[2].

وكلمة (رِكْزًا) جاءت بأضعف الأصوات وأخفتها لتُصور لك دلالة الآية، فالراء مكسورة، في أشدِّ حالات ترقيقها، ثم يأتي السكون على الكاف؛ ليُضْعف من شدتها، وليعطيها صوتها المهموس الضعيف، وهمسُ الكاف عند لفظه يعطيك صوتًا خافتًا بالكاد يُسمع؛ ليرسم لك الصورة الصوتية لمشهد القرون التي أهلكها الله، والتي بالكاد تسمع منها صوتًا، وجاء في آخر الكلمة حرف الزاي، وهو حرف صفير، لكن بالكاد يظهر فيه صوت الصفير، فهو أضعف الحروف التي تحمل هذه الصفة، بينما أشدها صفيرًا هو الصاد؛ ولذا نجد القرآن يستخدم حرف الصاد في مواضع أخرى، عند التعبير عن أصوات الريح القوية مثل: ﴿قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ [الإسراء: 69].

---

(1) الأنباري: **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**. ص565.

(2) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج4. ص2322.

ولو أنك أتيتَ لتقول: (هل تسمع لهم صوتًا) فسيُزعجك النشاز فى النغم، فالسياق الصوتى للآية هو سياق خفوت وهمود بالكاد تسمع فيه همسًا، أما كلمة (صوتا) فجَرْسها ثقيل وقوي؛ بسبب حرف التاء المفتوحة، وهو من حروف الشدة، وكذلك بسبب حرف الصاد الذي تظهر فيه صفات الاستعلاء والإطباق، فضلًا عن صفيره القوي الذي لا يتلاءم مع خفوت الأصوات في هذا المقام، بينما الزاي في (ركزًا) وإن كان فيه صفة الصفير إلا أنه أضعف ما تكون في الزاي كما أسلفنا.

وكذا الحال لو أتيت لتقول: (هل تسمع لهم حِسًّا)، فإن حرف السين المشدد المضعف يعطي للكلمة صوتًا قويا يضاعف من حدة صفيرها، وهو ما لا يتناسب مع سياق الآية.

وهكذا جاءت كلمة (ركزًا) هنا لتتناسب في وظيفتها الصوتية، مع وظيفتها الدلالية، مع وظيفتها الإيقاعية المتناغمة مع سائر فواصل سورة مريم، ثم إن لها وظيفة رابعة متعلقة بالسمات الشخصية للسورة، والتي يحددها طبيعة موضوعاتها وطبيعة إيقاعها، وتفرُّدها ببعض المفردات التي لم

ترد في سور أخرى، وكلمة (ركزا) هي من فرائد[1] سورة مريم التي تعطيها سماتٍ خاصةً بها.

❁ **ثانيًا: كلمة (مجراها):** فإنك تجد فيها حرف الجيم وهو حرف شديد، ثم الراء المفخمة بسبب الفتح، تليها الألف التي ينبغي تفخيم لفظها هنا تبعًا لفخامة الراء، وهكذا فإن هذه اللفظة يبدو صوتها قويًا ثابتًا، بينما مشهدُ سفينة نوح في الطوفان تتمايل على موج كالجبال، وهو مشهد يناسبه كلمة ذات صوت ضعيف فيه تمايل: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ [هود: 41، 42] بيدَ أن حفصَ بن سليمان قرأ كلمة (مجراها) بالإمالة، وهي الإمالة الوحيدة في قراءة حفص[2]، وعند لفظها بالإمالة تأتي الراء مرققة، وأيضا تأتي الألف مرققة تبعًا لذلك، فضلًا عن إمالة صوت الألف قريبًا من الياء، فيأتي الصوت منسجمًا تمامًا مع حركة السفينة، وهو «يرسم صورة تأرجح السفينة وتمايلها على أمواج البحر»[3].

---

(1) المقصود بالفرائد أي: المفردات التي تفردت بها سورة ما من سورة القرآن، ولم ترد في غيرها من السور. يُنظر كتاب فرائد سور القرآن.

(2) الداني، أبو عمرو: **التيسير في القراءات السبع**. ص48.

(3) بني دومي، خالد قاسم: **دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم**. ص264.

وفي المقابل تأتي كلمة (مرساها) في ذات الآية دون إمالة، لينسجم صوتها تمامًا مع حركة رسو السفينة، والرسو يقتضي ثباتًا واستقرارًا، فجاء لفظها دون إمالة.

وقد يُقال: إن كلمة (مجراها) لا تُقرأ بالإمالة في بعض القراءات، فأين تناسبها الصوتي مع دلالتها؟

ويُجاب على ذلك: هذا لا يشوش على ما ذكرنا، إذ إنه من المعلوم أن لاختلاف القراءات أثر بارز في اختلاف الاستنباطات الفقهية واللطائف والفوائد التفسيرية، والمطالع لكتب التفسير، يجد أن بعض المفسرين استنبطوا أحكامًا أو معاني قيمة من بعض القراءات دون بعض[1]، **فهل وجود حكم شرعي قائم على قراءة معينة يشوش عليه أن لا يوجد في قراءة أخرى؟! وهل استنباط معنى تفسيري أو لطيفة أو فائدة بحسب قراءة ما، هل يشوش عليه أن لا يوجد في باقي القراءات؟! اللهم لا.** فإذا كانت قراءة (مجراها) بالإمالة تتناسب مع صورة تمايل السفينة، فإن قراءتها بغير إمالة تتناسب مع معنى آخر، متعلق بقصة الطوفان، سواء عرفناه أم لم نعرفه.

---

(1) توجد مؤلفات خاصة في بيان أثر اختلاف القراءات في استنباط المعاني والفوائد والأحكام، منها على سبيل المثال كتاب **(اتساع الدلالات في تعدد القراءات القرآنية)** للشيخين محمود مهنا وعيسى وادي.

❁ **ثالثًا: كلمة (هَيْت):** فلو تأملنا في النغم الصوتي لكلمة (هَيْتَ) والتي وردت خلال مراودة امرأة العزيز ليوسُف عليه الصلاة والسلام: ﴿**وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ**﴾ [يوسف: 23]، فكلمة (هيت) فيها حرف الهاء المهموس، الذي يحاكي همسات امرأة العزيز، وكذا الياء اللينة التي تحاكي حركاتها المتمايلة، والكلمة كلها بصوتها رقيقة[1]، فصوت كلمة (هيت) يحكي المشهد حكاية صوتية.

❁ **رابعًا: كلمة (اسْتَهْوَتْه): فلك أن تتساءل عن إحكام كلمة (اسْتَهْوَتْه)** في موضعها من آية: ﴿ **كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ** ﴾ [الأنعام: 71].

والجواب أن الشيطان يوسوس لابن آدم بخفاء، وهذا الخفاء يناسبه أصوات الحروف الخفيفة اللينة المهموسة التي تحاكي وسوسة الشيطان، وكلمة (اسْتَهْوَتْه) من أولها لآخرها، خفيفة تتهامس حروفها كتهامس وسوسات شياطين الإنس والجن، فهمزة الوصل تختفي من هذا اللفظ ولا تظهر عند الوصل، والسين مهموسة، ومثلها أيضا الهاء اللينة الخفيفة، ثم الواو اللينة، وحتى التاء رغم شدتها فقد جاءت في الكلمة ساكنة مما أضعف شدتها وجعلها متهامسة كالسين، ثم اختُتمتْ الكلمة بهاء ثانية مهموسة أيضًا، فأصوات حروف الكلمة

(1) يُنظر بني دومي، خالد قاسم: **دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم**. ص261.

صورت لك أصوات وسوسة شياطين الإنس والجن وهم يتهامسون في خفاء مُستترٍ من حيث لا نراهم.

ولو أنك وضعتَ كلمة (أَضَلَّتْه) أو (أغوته) مكان (استهوته)، لجاءت ثقيلة بسبب همزة القطع في أولهما، ثم بسبب الضاد المطبقة المستطيلة في (أضلته) والغين المفخمة في (أغوته)، فضلًا عن التشديد فوق لام (أضلته)، وكذا لو رُمْتَ وضع كلمة (أمالته)، فلن تجد فيها ذلك الكم من الأصوات المهموسة المُصورة لوسوسة الشياطين.

وليس هذا إلا وجهًا واحدًا من وجوه إحكام لفظة (استهوته) في موضعها، متعلق بجمالها الصوتي المناسب لصورتها، أما إحكامها من حيث دلالتها وسائر وجوه إعجاز القرآن، فليس ببعيد عما سبق ذكره بخصوص كلمة (ركزًا).

❁ **خامسًا: كلمة (العِهْن)** في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**﴾ [القارعة: 5] والعهن هو الصوف[1]، وفي صحيح مسلم في تشجيع الصحابيات أولادهن على الصيام: "فنجعل لهم اللعبة من العهن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناها إياه عند الإفطار"[2]، وقال زهير في معلقته:

---

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**. ج8. ص468.

(2) مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الصيام. باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه. ج2. ص797. رقم: 1136.

كَأَنَّ فُتَاتَ العِهْنِ في كلِّ مَنْزِلٍ ... نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ[1]

ولكن كلمة الصوف فيها الصاد المفخمة، وهي حرف قوي شديد، بينما الجبال يوم القيامة تُنسف وتُبس حتى تصبح هباء خفيفًا مُنبثًّا، فتأتي الهاء الخفيفة في كلمة (العهْن) لتُسهم في تصوير حالة الجبال يومئذ، والهاء من أضعف الحروف صوتًا وأخفها، وذلك لاجتماع الصفات الضعيفة فيها؛ كالهمس والرخاوة والاستفال، حتى إن نُطقها لا يكاد يظهر حين تأتي ساكنة، كما هو الحال في كلمة (العهْن).

وبالطبع فإن كلمة (العهن) لم تقتصر وظيفتها على التصوير الصوتي فقط، بل هي أيضًا أنسب من كلمة (الصوف) من ناحية المعنى أيضا؛ لأن الصوف عام، بينما العهن هو الصوف الأحمر أو الملون[2]، فهو أنسب لتصوير حال الجبال يوم القيامة.

❁ وذات الهاء الضعيفة تأتي في معرض تذلل زكريا عليه السلام بين يدي ربه، حيثُ لم يقلْ (ضَعُفَ العظم مني) وإنما قال: ﴿**رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي**﴾ [مريم: 4] ولك أن تُقارن بين كلمة (ضعف) التي فيها الضاد الثقيلة المستعلية المطبقة، وبين كلمة (وهن) التي افْتُتِحَتْ بالواو اللينة، ثم توسطتها

(1) أبو زيد القرشي: **جمهرة أشعار العرب**. ص159.

(2) يُنظر ابن عطية، الأندلسي: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. ج5، ص516.

الهاء الخفيفة الرقيقة؛ لتصور لك عظامه وقد رقتْ ووهتْ، حتى لكأنها بخفة الهاء وضعفها.

ومع التناغم الصوتي في كلمة (وهن) فإنها تحمل أدبًا نبويًا نتعمله من نبي الله زكريا عليه السلام، فإن بين الضعف والوهن فرقًا ذكره العسكري فقال إن الضعف من فعل الله، وأما الوهن فهو أن يفعل الإنسان فعل الضعيف[1]، فنبي الله زكريا عليه الصلاة والسلام لم يُرد أن ينسب ضعفه لفعل الله عز وجل، وإنما نسبه لنفسه، كما أن الوهن أبلغ من الضعف في تصوير حاله؛ فهم يقولون: امرأة وَهْنَانة أي التي ثَقُلَتْ عن القيام والقعود فَقَلَّتْ حركتها[2].

المطلب الثاني: الأصوات التي تصور القوة والشدة أو الغلظة والتهديد والوعيد

وغالبًا ما يكون هذا من تَرَاصُف الحروف التي فيها صفات: الاستعلاء والإطباق والقلقلة والشدة وما يشابهها، ومن الأمثلة التي تبين ذلك ما يأتي:

(1) العسكري: **الفروق اللغوية**. ص115.

(2) ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**. ج6. ص150.

❁ **أولًا: كلمة (يصطرخون)** في الآية الكريمة ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ**﴾ [فاطر: 37]، ويستشعر سيد قطب جَرْس الكلمة القوي فيقول: «يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء، متناوح من شتى الأرجاء، إنه صوت المنبوذين في جهنم «وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها»، وجَرْس اللفظ نفسه يُلقي في الحسِّ هذه المعاني جميعًا»[1]، «والأصل (يصترخون) فأُبْدِلتْ الطاء من التاء للمبالغة»[2]، وبهذا الإبدال تتابعتْ في الكلمة ثلاثة حروف (ص، ط، خ) فنتج عنها الجَرْس العنيف الذي تحدث عنه سيد قطب، فالصاد حرف استعلاء مفخم، وهو أقوى الحروف التي تتحقق فيها صفة الصفير، فتصور لك مشهد صراخهم وهو يخترق أجواء جهنم، كما يخترق صوت الصفير الفم ثم ينتشر، والطاء حرف في غاية القوة لاجتماع صفات الشدة والجهر والإطباق والاستعلاء فيه، وهذه الصفات تجعل صوته يملأ الفم، فيصور لك حالة صراخهم الذي ملأ جهنم، بعد أن ملأ أفواههم ونفوسهم، ثم تأتي الخاء وهي حرف استعلاء مفخم يعطيك صوت الخوار ليصور حالهم وقد أنهكهم الصراخ فخاروا كما تخير البهائم عند ذبحها.

---

(1) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج5. ص2945.

(2) البكري، حسين محسين: **دراسات في الدلالة القرآنية**. ص23.

❁ **ثانيًا: في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾** [الإسراء: 69] والقاصف هو الكاسر، وهي الريح الشديدة التي لها قصيف فتكسر كل ما تمر به[1]، وهي أشد من الريح العاصف وأقوى، ولذا استخدموا لفظة (القاصف) مع صوت الرعد الشديد كما في قول أبي العتاهية يمدح هارون الرشيد:

وزحف له تحكي البروق سيوفه ... وتحكي الرعود القاصفات زماجره[2]

وصوت كلمة (قاصفًا) في الآية، هو بحد ذاته كأنه قذيفة ثقيلة تشق الأجواء بصوتها العنيف، وتتعاور مجموعة من صفات الحروف لتُجسد المشهد، فالقاف حرف قوي شديد، وهو هنا في أشد حالات التفخيم، ثم إن مجيئه في أول الكلمة يضغط مجرى النفس من جهة الحلق، فينحبس الهواء حِينًا ثم يُترك عند مغادرة مخرج القاف مُسببا اندفاعا أقوى للهواء، خاصة حين يتبعه حرف مد كما الحال في كلمة (قاصفًا)، ثم جاءت الصاد المستعلية مع صفيرها الذي يصور لك حركة الريح الكاسرة وهي تشق الأسماع، ثم تُختتم الكلمة بحرف الفاء المهموس الذي يجري مع لفظه الهواءُ، فتستمر صورة هبوب الريح القاصف من أول لفظ الكلمة لآخرها.

---

(1) الرازي: **مفاتيح الغيب**. ج21. ص372.

(2) أبو العتاهية: **ديوان أبي العتاهية**. ص213.

ولا تنوب كلمة (عاصف) أبدًا عن كلمة (قاصف) –كما هو الحال في سائر كلمات القرآن–؛ فإن القوة الصوتية في كلمة (قاصف) أقوى بكثير، كما أن السياق ههنا سياق تهديد ووعيد بالإهلاك والإغراق، وهذا يناسبه القصف وليس العصف، فإن الريح القاصف تكسر وتهشم[1]، فتغرق السفينة، أما الريح العاصف فهي عامة في كل ريح شديدة، ولذا جاءت في سياقات أخرى كالحديث عمن ينجيهم الله من الغرق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ...﴾ [يونس: 22، 23].

❁ **ثالثًا: لاحظ القوة والحزم في كلمة (اصْدَعْ)**، في قوله عز وجل: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: 94] حيث يجتمع استعلاء الصاد وصفيرها؛ ليصور لك استعلاء الداعي بالحق، وهو يقذف بكلمة الحق، فتشق أسماع الناس كما شق صفير الصاد الساكنة الأسماع بحدته وقوته، ويلتصق بالصاد حرف الدال المتحركة وهو حرف قوي شديد فيزيد من قوة الكلمة وشدتها، ثم إن المقطع الثاني من الكلمة (اصْ – دعْ) يوحي بقوة الدفع والمدافعة

(1) "يُقال الأقصف الذي انكسرت ثنيته من النصف" (ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**. ج5. ص93.

عند الصدع في وجه الباطل، ولأن قول الحق مرٌّ، وقد يجلب غصة في الحلق، تأتي العين الساكنة التي تخرج من وسط الحلق لتعطيك بلفظها شعورا يغص الحلق، وهي الغصة التي يجدها كل صادع بالحق عندما يرى من قومه نفورًا وإعراضًا.

ولهذه الكلمة –فضلًا عن مناسبة صوتها لمدلولها– إحكامًا في موضعها وبلاغة في دلالتها لا تبلغه كلمة أخرى، فالصدع مأخوذ من صديع الفجر أي انصداع الصبح[1]، ومنه قول الشاعر:

بهِ السِرْحانُ مُفترِشاً يديهِ ... كأنَّ بياضَ لبَّتِهِ الصَدِيعُ[2]

والآية الكريمة أمرتْ بالصدع بالحق، لأن المطلوب من الداعي للحق أن يجهر به جهرًا يصدع ظلام الباطل، فينبثق منه نور الحق كما يصدع ضوءُ النهار ظُلْمةَ الليل.

والصدع "شقّ في شيء له صلابة... والصَّدْعُ: نبات الأرض لأنه يصدع الأرض، والأرض تتصدَّع عنه"[3] فكأن قوة كلمة الحق تشق صخرة الباطل، حتى ينبت الحق مكانها، وفي التنزيل الحكيم ﴿**وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ**﴾ [الطارق:

---

(1) يُنظر الفراهيدي: **العين**. ج1. ص292.

(2) من شعر عمرو بن معد يكرب. الأصمعي: **الأصمعيات**. ص176.

(3) الفراهيدي: **العين**. ج1. ص291.

12]، والصديع أيضا "ثوب يصدع أي يشق نصفين يكون تحت الدرع وهو غلالته"[1] فبالصدع يتميز الناس شقين أو فريقين.

وبعد، فهل تنوب كلمة (اجهر بما تؤمر) أو (اصرخ بما تؤمر) عن كلمة (اصدع)؟!! وحسبك أن تعلم: «أن أعرابيًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ فسجد، وقال: سجدتُ لفصاحة هذا الكلام»[2].

المطلب الثالث: أصوات الإيقاظ والتنبيه

أظهر ما تكون أصوات الإيقاظ والتنبيه في الهمزة حين يُبْتدأ بها الكلام، حتى إنها سُميتْ الحرف الجَرْسي المهتوف؛ «لخروجها من الصدر كالهتوع، فتحتاج إلى ظهور قوي شديد... وهو في المعنى بمنزلة تسميتهم للهمزة بالجَرْسي لأن الجَرْس صوت شديد، والهتف الصوت الشديد»[3].

❁ ومثل هذه الهمزة أتتْ في أول سورة التكاثر: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: 1، 2] ويلفتُ صاحب الظلال أسماعنا للإيقاع المدوي

(1) يُنظر الدينوري: **المعاني الكبير في أبيات المعاني**. ج2. ص1033.
(2) الماوردي: **النكت والعيون**. ج1. ص30.
(3) يُنظر ابن الجزري: **التمهيد في علم التجويد**. ص98.

لهذه السورة فيقول: «هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق، وكأنما هي صوت نذير قائم على شرفٍ عالٍ، يمد بصوته ويدوي بنبرته، يصيح بنُوَّمٍ غافلين مخمورين سادرين... فهو يمدُّ بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾، أيها السادرون المخمورون، أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولَاد...»[1]، والقارئ لهذه الكلمة (ألهاكم) مُحَقِّقًا همزة القطع، يستشعر: «بانفجاره القوي، وخروجُه من أول المخارج الصوتية يهيءُ جهازك النطقي للقراءة وذهنك للتفكير، كما يهيءُ السامع بفجاءته الخاطفة ووضحه السمعي العالي لسماع السورة وتدبرها»[2].

المطلب الرابع: الأصوات التي تصور الحركة والاحتكاك والاهتزاز والتكرار

تتشكل الصورة الصوتية لأفعال الحركة، من خلال المقاطع الصوتية للكلمة، خاصة حين تكون صيغة الكلمة على أوزان فيها تكرير مثل: (فَعْلَل) وتصريفاتها مثل: (فَعْلَلَة) و(فُعْلِلُوا)، وأحيانا يأتي تنوع الحركات أو (التشكيلة

(1) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج6. ص3962.

(2) قبها، مهدي عناد: **التحليل الصوتي للنص بعض قصار سور القرآن الكريم أنموذجا**. ص76.

الصوتية)[1] على الكلمة الواحدة من فتح وضم وسكون وكسر وتشديد؛ ليزيد من قوة الحركة في الكلمة، كما أن لحرف الراء –وهو الحرف الوحيد الذي فيه صفة التكرار–، دورٌ مُهم في تصوير تكرار الفعل، خاصة إن عاضدته بقية العوامل، وإليك بعض الأمثلة في ذلك:

❁ **أولًا: بالإمكان ملاحظة الحركة المتكررة في صوت كلمة (فَكُبْكِبُوا)** من قوله عز وجل: ﴿**فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ**﴾ [الشعراء: 94] والتي تصف إلقاء الكَفَرَة في نار جهنم، يقول صاحب نظرية التصوير الفني في القرآن: «وإننا لنكاد نسمع من جَرْس اللفظ صوت تَدَفُّعِهم وتَكَفُّئِهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام، وصوت الكركبة الناشئ من الكبكبة، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف، فهو لفظ مصور بجَرْسه لمعناه»[2]، وهذا الجَرْس الذي يتحدث عنه سيد قطب، ناشئٌ من المقطعين الصوتيين (كُبْ) (كِبْ)، حيثُ «جُعل التكرير في اللفظ دليلًا على التكرير في المعنى، كأنه إذا أُلقى في جهنم ينكبُّ مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها»[3]، كما أنه يلزمنا عند لفظ الكلمة أن نُحدث فيها مزيدًا من الحركة والاهتزاز بسبب القلقلة في حرف الباء الساكن، كما يأتي التنوع في الحركات على حروف الكلمة، ما بين الضمة التي على الكاف الأولى، ثم

---

(1) ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص158.

(2) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج6. ص3962.

(3) الزمخشري: **الكشاف**. ج3. ص322.

السكون، ثم الكسر، ثم العود إلى الضم على الباء الثانية، ليزيد كل ذلك من التصوير الصوتي لمعنى الكلمة، فهذا التعاقب في الحركات يضيف مزيدًا من جوِّ الحركة والكركبة الذي تحدث عنه سيد قطب رحمه الله.

❁ **ثانيًا: كلمة (صَرْصَر)**، والتي جاءتْ في القرآن الكريم لوصف الريح الشديدة الباردة[1]، التي أهلكتْ بعض الأقوام السابقة، ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾ [الحاقة: 6] وصوت حرف الصاد في كلمة (صرصر): «يحمل إلى سمعك صوت الريح العاصفة»[2]، وبيان ذلك أن حرف الصاد يخرج عند اقتراب طرف اللسان من أطراف الأسنان العليا فينتج عن ذلك فُرجة صغيرة[3]، يمرُّ الهواء منها مُحدثًا احتكاكًا ما بين طرف اللسان مع أطراف الأسنان منتجًا صوت صفير، والصاد هي أكثر الحروف الذي تتحقق فيها صفة الصفير كما أسلفنا، وهذه الحركة الاحتكاكية تماثل تمامًا احتكاك الريح بديار القوم، والذي ينجم عنه صوت صفير الريح، **فصفة الصفير في حرف الصاد أعطتْ صورة صوتية حقيقية لصفير الريح وهي تعصف في ديار عاد.**

ثم يأتي التقطيع الصوتي لكلمة صرصر، هكذا: (صَرْ- صَر)، والذي يوحي بحركة الريح المتكررة القوية، فلم تكن ريحًا عابرة صفرتْ مرة ثم هدأتْ،

(1) يُنظر الطبري، ابن جرير: **جامع البيان في تأويل القرآن**. ج21. ص445.
(2) البدوي، أحمد: **من بلاغة القرآن**. ص60.
(3) يُنظر الداني، أبو عمر: **التحديد في الإتقان والتجويد**. ص105.

كلا، بل تكرر هبوب الريح عليهم مرارًا وتكرارًا حتى حسمهم في يوم نحسٍ مستمر، وتكرار مقطع (صَرْ– صَر) يعطيك الصورة الصوتية والصورة الواقعية الحية لتكرر هبوب الريح عليهم، ثم تأتي أخيرًا صفةُ التكرار في الراء –وهو الحرف العربي الوحيد الذي فيه صفة التكرار– ليؤكد تتابع هذه الريح واستمرارها عليهم.

❁ **وبالقياس على ما سبق، بإمكانك أن تستشعر حركة التردد والتخبط في صوت كلمة (مُذْبْذَبين)**، في قوله عز وجل: ﴿**مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ**﴾ [النساء: 143]، والذبذبة هي: "تردد شيء في الهواء معلق"[1].

وقد اجتمعت ثلاثة أسباب صوتية ساعدت في رسم صورة المنافقين –في الآية– في اضطرابهم وحيرتهم: أولها تعاقب حركات الضم والفتح والسكون، ثم القلقلة في حرف الباء، وثالثها التقطيع الصوتي المكرر للكلمة.

وهَبْ أنك قُلتَ (مترددين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) فإن كلمة (مترددين) تقصر عن أداء الوظائف التي أدتها كلمة (مذبذبين)؛ فكلمة (مترددين) ليس فيها التقطيع الصوتي الذي يوحي بكثرة الحركة، كما أن الذبذبة

(1) الفراهيدي: **العين**. ج8. ص178.

هي "تردد شيء معلق في الهواء"[1]، فهي أبلغ في وصف حال المنافقين الذين يتعلقون بأهوائهم ويترددون في مواقفهم دون أن يستندوا إلى مصدر القوة والمنعة والعصمة سبحانه، وهذا الوصف تجده في (مذبذبين) ولا تجده بالضرورة في (مترددين).

❁ **ثالثًا: كما يظهر أثر التقيطع الصوتي وتنوع الحركات في كلمة (يترقَّبْ)** في الآية التي تصف حال نبي الله موسى ﷺ بعد قتله القبطي: ﴿**فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ**﴾ [القصص: 18] ولو لاحظنا التقيطع الصوتي لكلمة (يَتَرَقَّب) (يَتَ– رَقْ–قَب)، والتي يُشعرك لفظها بالتمهل والانتظار والتريث، لتصور لك حالة موسى عليه السلام وهو يتحرك بتأنٍ وتباطؤ، ويتلفت حوله لئلا يراه أحد. ثم إن الكلمة تتوالى فيها ثلاث حروف مفتوحة، والفتحة هي أسهل الحركات، ثم تأتي بعدها التشديد على القاف الثقيلة، أي أن نصف الكلمة الأول يُلفظ بسهولة، ثم تأتي الصعوبة والبطء –نسبيًا– في مقطع الكلمة الثاني، وهذا التقطيع الصوتي يماثل تمامًا حركة موسى عليه السلام الذي كان بعد حادثة القتل: «يمشي بتمهل، إلا أن هناك تلفّتًا منه بين الفَيْنة والفينة خوف العدوّ، فيتقاسم حركته المشي والوقوف الحذر في خفية وحذر، ولعلّ هذا يستمدّ –كما

(1) الأزهري: **تهذيب اللغة**. ج14. ص 297.

رأينا سابقًا- من توالي الفتحات الذي يتبعه وقوف الشّدّة، ثم تجيء حركة الضّم على الباء»[1].

❁ **رابعًا: وللتقطيع الصوتي الناجم عن حكم السكت[2] دورٌ لطيف في تصوير المعنى**، كما في السكتة على كلمة (بل) في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: 14، 15] فإن قطع الصوت عند لفظ: (بل – ران)، يشبه قطع تلك القلوب عن ربها بسبب ذنوبهم، وكما أن ذنوبهم كانت رانًا فصل قلوبهم عن الله، فكذلك هذا السكتُ فصل الكلمتين صوتيًا عن بعضهما.

❁ في حين أن السكتة على كلمة (من راق)، من قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ [القيامة: 26 – 28] تُصور حالة المحتضر الذي يعالج سكرات الموت، وقد بلغ نزع الروح إلى ترقوته، فتحشرجتْ أنفاسه وتقطعتْ حين بلغتْ روحه الحلقوم، وقطعُ النفس عند نطق كلمة: (من– راق)، ينقل لك صوت تَقَطّع الأنفاس عند حشرجة الروح وقتئذ.

---

(1) ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص159.

(2) **السكت هو**: "**قطع الكلمة عما بعدها مقدارا قصيرا من الزمن، قدر حركتين دون تنفس،** مع قصد العودة إلى القراءة فى الحال" (المصري، محمود بن علي: **العميد في إحكام التجويد**. ص150).

المطلب الخامس: الأصوات التي تُصور الانتشار والبث

بإمكاننا أن نشعر بانتشار الهواء بقوة واتساع عند نطق بعض الحروف، خاصة حرف الشين الموصوف بالتفشي دون غيره من الحروف، مع أن بعضهم عدَّ هذه الصفة موجودةً في الثاء أيضا كابن الجزري[1].

❁ ولْنلحظْ أثر حروف التفشي في تجسيد الصورة الدلالية الحركية في مقطع قصير من سورة القارعة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: 4] وقد شبهتْ الآية الناس بالفراش المبثوث: «في انتشارهم وتفرقهم، وذهابهم ومجيئهم، من حيرتهم مما هم فيه»[2]، وصورة الانتشار هذه، يصورها تكرار حروف التفشي (الشين) و(الثاء)، ولك أن تلفظ كلمة (الفراش) لتشعر بانتشار الهواء بشدة واتساع مع حرف الشين، ثم تلفظ كلمة (المبثوث) لتلحظ تتابع انتشار الهواء مرتين في حرفي الثاء.

❁ ولاحظ كيف يؤدي حرف الشين وظيفته في تصوير سرعة انتشار الشيب في رأس زكريا عليه السلام: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4] فكلمة (اشْتعل) فيها تشبيه بليغ يصور سرعة انتشار الشيب في الرأس، وكذا صفة

(1) يُنظر ابن الجزري: **التمهيد في علم التجويد**. ص97.

(2) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**. ج8. ص468.

التفشي والانتشار في حرف الشين، تزيد الصورة بلاغة، ولو قال (واحترق الرأس شيبا) أو (اتَّقد) لما حصل التناغم بين الصوت والمعنى.

المطلب السادس: الأصوات التي تُصور الثِقل والبطء

والأصوات التي تُجسد الحركات الثقيلة البطيئة، تتشكل من بعض الحروف ثقيلة النطق، كحرف الضاد المتصف بالاستطالة، وكالثاء المشددة، وأيضا يسهم في تصوير مشاهد التثاقل والتباطؤ الحروف المُضعفة المُشددة، وأيضًا تعاقب الحركات المتغايرة، وإليك بعض الأمثلة التي توضح ذلك:

❁ **أولًا: كلمة (اثَّاقلتم)**، في الآية التي تأمر بسرعة النفير في سبيل الله، وتنهى عن التباطؤ في ذلك: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ**﴾ [التوبة: 38] ولو أنك قارنتَ بين كلمة (اثَّاقلتم) التي جاءت في الآية، وكلمة (تثاقلتم) على سبيل المثال، فستدركُ سهولةً في نطق (تثاقلتم) بالنسبة إلى (اثَّاقلتم)، وذلك بسبب إتيان الهمزة قبل ثاء (اثَّاقلتم)، ثم تضعيف حرف الثاء وتشديدها، مما يزيد من صعبة نطقها، ذلك أن: «حرف الثاء لثويّ، ووجود الشّدّة عليه، يجعل اللسان عالقًا بأطراف الأسنان بشكل قويّ،

وهذا يمثّل حبّهم للقعود، وعدم التحرك، ولا شك في أن فرضية تبديل المفردة بـ «تثاقلتم» توحي بهذه العملية في جهاز النطق»[1].

❁ **ثانيًا: لفظة (ادَّاركوا)، حيث يُسهم إدغام التاء الأصلية في الدال، في تجسيد صورة المشهد** الذي ترسمه الآيات لتتابع دخول المجرمين في النار: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ . . . ﴾ [الأعراف: 38].

يذكر الدكتور تحسين عباس أن الإدغام في كلمة (ادَّاركوا) جاء ليعين على توضيح الصورة على أبواب جهنم[2]، وهذه اللفتة القيمة أشار إليها البقاعي قبله، حيثُ قال: «أي تداركوا وتلاحقوا، يركب بعضهم بعضًا بما يشير إليه الإدغام»[3]، فسياق الآيات يقتضي تصوير اجتماعهم كلهم معًا وتكدُّسهم وتراكمهم في درك جهنم، والتَّكَدُّس يلائمه إدغام الحرفين لا فكُّهما. ثم إنه لو قلنا (تداركوا) بدل (ادَّاركوا) فإن التقطيع الصوتي الذي نحسُّه في كلمة (تداركوا) يوحي بتمهل وتدرج وسلاسة، وهذه السلالسة وذاك التدرج، لا يناسبان سرعة دَعِّهم إلى جهنم وقذفهم فيها متراكبين متزاحمين، وإنما يناسبه التداخل الصوتي الذي نحسُّه في كلمة (ادَّاركوا).

---

(1) ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص159.

(2) عباس، تحسين فاضل: **الانسجام الصوتي في النص القرآني**. ص45.

(3) البقاعي: **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. ج7. ص397.

❁ وعلى مثل هذا يُقاس لفظ (ادَّارأتم) في الآية: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: 72]، والذي يتناغم مع معنى الآية، حيث كان كل فريق منهم حريصًا على دفع تهمة القتل إلى الآخر وإلصاقها به، وهذا التدافع والحرص على الإلصاق يناسبه الإدغام والثقل اللفظي، والتشديد الذي على حرف الدال يناسب شدة التدافع بينهم، فكأن كل فريق منهم يمسك بالتهمة من طرف ويدفعها إلى الآخر.

❁ **ثالثًا: لاحظ عملية نطق كلمة (اضْطُرَّ) ومثلها (نضْطَرُّهم)**، وقد اعتاد الناس عند لفظها على إدغام الضاد بالطاء تسهيلًا، وهذا مخالف لقواعد ترتيل القرآن وتجويده، والتي تقتضي أن تُطَبَّق صفة الاستطالة في الضاد، وهي صفة تحتاج تمهلًا نسبيًا، حتى تلتصق حافتا اللسان بالأضراس العليا، ثم يمتلأ الهواء وينحبس بُرهة بين سقف الحلق واللسان، وعملية النطق هذه فيها تمهل نسبي وتأنٍّ، ثم يأتي بعد حرفِ الضاد حرفُ الطاء، وهو حرف مُطبق شديد يزيد من عملية الثقل والتباطؤ في إخراج الكلمة، ثم يأتي ثالثًا التشديد الذي على حرف الراء فيضاعف من ثقل الكلمة وبُطْئِها مرة ثالثة، ولك الآن أن تتلو بعض الآيات التي وردت فيها الكلمة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 115]، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24].

ففي الآية الأولى تلحظ الحركة المترددة لذلك الجائع الذي شارف على الموت، فيأتي ليَهُمَّ بأكل ميتة أو خنزير، ثم يتراجع ويتباطأ، ثم يغلبه الجوع مرة أخرى فيتقدم بتثاقل نحو تلك الميتة أو ذاك الخمر، لكن ورعه يمنعه فيرعوي ويتراجع، فهي حركة مترددة ثقيلة، والحركة ذاتها تجدها عند ذلك الكافر الذي تخبرنا عنه الآية الثانية، والذي يُمتعه الله متاع الحياة الدنيا، ثم يكون مصيره العذاب الغليظ، ولك أن تتخيل حركته وقد اقتادته الزبانية بالأصفاد الثقيلة، فها هو أمامك يمشي ببطء ويتلكؤ، ويحاول أن يَتَلَبَّط بالأرض؛ ليؤخر نفسه عن مصيره المحتوم، ويتثاقل في مشيته لينجو من مصيره المحتوم، تمامًا كتثاقل كلمة **(نَضْطَرُّهُمْ)** في الفم عند نطقها، ويزيد الآية تناسقًا وانسجامًا مع سياقها الصوتي ومع سياقها الدلالي: مجيءُ حرف الظاء في كلمة (عذاب غليظ)، وهو حرف غليظ نطقه على الفم، كما هو العذاب غليظ على ذاك الكافر.

وفي نسبة فعل الاضطرار إلى ذلك الكافر ما يوحي بأنه يُحصر ويُمنع من الهرب فلا مناص له ولا ملجأ ولا مهرب إلا أن يرمي نفسه بنفسه إلى نار جهنم، كمن تحصره وتحبسه فتضطره إلى أن يطلق النار على نفسه بيده، فهو عذاب نفسي يسبق العذاب المادي، قال الفخر الرازي: "الاضطرار هو أن يصير الفاعل بالتخويف والتهديد إلى أن يفعل ذلك الفعل اختيارا... فيكون المعنى: أن

الله تعالى يُلجئه إلى أن يختار النار والاستقرار فيها بأن أعلمه بأنه لو رام التخلص لمنع منه"[1].

ولك أن تلاحظ البَوْنَ الشاسع بين التعبير عن المشهد في الآيات السابقة بلفظة (**نضطرهم** إلى عذاب) ولفظة (**نسوقهم** إلى عذاب)، فإن كلمة (نسوقهم)، يغلب عليها الأصوات اللينة الرخوة؛ فالواو حرف ضعيف هوائي، والسين حرف مهموس ضعيف، وكلاهما حرفان رخوان، فهو تعبير رقيق لا يناسب مقام الخشونة والغلظة الذي يقتضيه مشهد العذاب والذي يحققه لفظ (نضطرهم)، وأيضا لو قلت (ندفعهم) فلن تؤدي ما أدته لفظة (نضطرهم).

فإن قيل: قد ذكر الله سوقهم في سورة مريم: ﴿**وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا**﴾ [مريم: 86]. فالجواب: إن السياق ههنا جاء للتهكم بهم، قال الزمخشري: "وذكر الكافرين بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نَعَمٌ عِطاش تُساق إلى الماء"[2]، ولعل السوق يكون في أول دفعهم إلى جهنم فيُقادون إليها بسرعة كسوق الدواب، حتى إذا وصلوا إلى شفير جهنم وأحسوا بلهيبها حاولوا التملص والتفلت، فيطضرهم حينها إلى العذاب الغليظ.

---

(1) الرازي: **مفاتيح الغيب**. ج4. ص50.

(2) الزمخشري: **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**. ج3. ص43.

وهكذا كل لفظة في القرآن تؤدي وظيفتها الصوتية الإيقاعية الجمالية، في نفس اللحظة التي تؤدي فيها وظيفتها المعنوية الدلالية، وهي مع هذا وذاك، لها وظائف أخرى متعلقة بإعجاز علمي أو تشريعي، أو توافق عددي أو غير ذلك مما لا يكون دَرْكُه ولا إحاطته إلا بتأملٍ عميق، وفتحٍ من العليم الكريم على من يشاء من عباده، ولو رُمتَ استبدال لفظة مكان لفظة، بله حرف مكان حرف، لتعطل كثير من تلك الوظائف، تمامًا كما لو رام طبيب تغيير موضع العين، عن موضعها الذي جعلها الله فيه أو عن شكلها، لتعطلت كثير من وظائفها[1].

❁ **رابعًا: في قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾** [القيامة: 33] وهي الآية التي تصف تبختر أبي جهل[2] وتِيْهَه في مشيته كِبرًا وبطرًا.

والعلاقة بين صوت كلمة (يتمطى) مع دلالتها واضح جدًا، بل إنها ترسم للقارئ صورة تلك المشية والتي تسمى مشية المطيطاء[3]، حيثُ إن «الشّفاه ترتاح في حركة الفتح، ونستطيع أن نتلمس تطاول الأعضاء بعد شدّ العضلات من الوقوف في الشّدّة الذي تتبعه الألف المقصورة ذات المدّ الطويل، وهذا المدّ

---

(1) تشبيه ذلك بالعين مُسْتَلٌّ من كلام لعبد الكريم الخطيب في كتابه: **الإعجاز في دراسات السابقين**. ص380.

(2) البغوي: **معالم التنزيل في تفسير القرآن**. ج8. ص286.

(3) يُنظر ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**. ج5. ص273.

يمثل انفراج الأعضاء، وتعالي الرجل في مباهاة وخيلاء»[1]، كما أن حرف الطاء حرف إطباق يملأ الفم تمامًا، وهذا الامتلاء يشبه حالة المتكبر المتبختر في مشيته، الذي ينفخ صدره وهو ممتلئ تيهًا وإعجابًا وغرورًا.

❁ خامسًا: وحرف العين المشددة يضيف للحركة الثقيلة، معنى الصعوبة بل والاختناق، لاحظ مثلًا: لفظ (يَصَّعَّد) في آية: ﴿**وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ**﴾ [الأنعام: 125] فهذه الآية تصور ضيق صدر الإنسان الذي يَعْمَه في غيِّه وضلاله، «وهي حالة نفسية تُجَسَّم في حالة حسية، من ضيق النفس، وكُربة الصدر، والرهق المضني في التصعد إلى السماء، **وبناء اللفظ ذاته «يَصَّعَّد» – كما هو في قراءة حفص– فيه هذا العُسر والقبض والجهد، وجرسه يخيل هذا كله، فيتناسق المشهد الشاخص، مع الحالة الواقعة، مع التعبير اللفظي في إيقاع واحد»**[2]. ولفظة «يَصَّعَّد» اجتمعتْ فيها ثلاثة أسباب جعلتها تصور المشهد صوتيًا؛ أولا: التقطيع الصوتي (يصْ– صَعْ– عَد)، والذي يوحي بتدرج العملية على مراحل، وثانيها: التشديد على حرف الصاد، وآخرها وأهمها: حرف العين المشددة، والذي يضيف إلى البطء والصعوبة صورةَ الاختناق؛ لأنه حرف يخرج من وسط الحلق، وحين يكون

(1) ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص159.

(2) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج3. ص1203.

مشددًا فإنه يضغط على الوترين الصوتيين بشدة، فيكون الصوت تمامًا كصوت من يتعرض للخنق.

❁ ومثلها أيضًا كلمة (يتجرعه): «وما أحسب شفتَيك إلا مُنْقبضتَيْن استقباحًا واستهجانًا لحال الكافر الذي يتجرع صديده ولا يكاد يسيغه، في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: 16، 17] فتستشعر في لفظ "التجرُّع" ثقلًا وبُطئًا يدعوان إلى التقزز والكراهية»[1]، حيث يتعاور التقطيع الصوتي للكلمة، مع الراء المشددة التي توحي بتكرار الفعل، مع العين التي تضغط وسط الحلق عند خروجها، فتعطي الكلمة تلك الصورة الصوتية للتقزز من الصديد وهو يتجرعه، أعاذنا الله.

❁ وفي الآية الكريمة: ﴿**وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ**﴾ [لقمان: 18] ومعناها: "أقبلْ على الناس بوجهك تواضعًا، ولا تُوَلِّهم شق وجهك وصفحته، كما يفعل المتكبرون"[2]، وتجد في كلمة (تُصعِّر) إحساسًا بغصة في وسط الحلق حيث تخرج العين المشددة، وهي غصة لفظية تحاكي الغصة التي يجدها الإنسان حين يشعر بالاشمئزاز من شيء ما، وهو شعور يجده المتكبر حين ينظر بتعال ويختال على الناس ويميل بعنقه عنهم، ولكن الآية تقلب هذا الشعور عليه،

---

(1) الصالح، صبحي: **مباحث في علوم القرآن**. ص336.

(2) الزمخشري: **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**. ج3. ص497.

وتجعلنا نحن نشمئز من سلوكه، خاصة حين نعلم أن أصل كلمة (تصعِّر)، مأخوذ من الصُّعرورة وهي: "دحروجة الجُعَل، يصعرِرُها بالأيدي"[1] فكأن الذي لا يُقبل بوجهه على الناس ويميل شقه عنهم تكبرًا، يقلد الجُعل (الخنفساء)[2] التي تتغذى على البراز والروث وتدحرجه أمامها على شكل كرة أكبر من حجمها، وهي خلال دحرجتها تميل وجهها للأرض حتى يصبح رأسها في موضع أطرافها الأمامية، ثم تدفع كرة الروث بأطرافها الخلفية[3]، أي أن الآية شبهت إمالة المتكبر وجهه عن الناس بإمالة خنفساء الروث لوجهها، فدلالة الكلمة من حيث المعنى تجعلنا نشمئز من ذلك المتكبر، وكذا صوتها يصور الإحساس بالاشمئزاز.

❁ وبإمكانك أن تقيس لفظ (يُدَعُّون) في آية: ﴿**يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا**﴾ [الطور: 13]، على ما قيل في (يصَّعَّد) و(يتجرعه)، فترى بصوت اللفظ صورتهم وهم يُدفعون بغلظة وقسوة إلى نار جهنم.

---

(1) الفراهيدي: **العين**. ج1. ص298.

(2) الزبيدي: **تاج العروس**. ج20. ص448.

(3) بالإمكان مشاهدة هذا التصرف من خنفساء الروث بمراقبتها في الطبيعة، أو بمشاهدتها في الفيديوهات المصورة في الشبكة العنكبوتية، واسمها في الإنجليزية: (Dung beetle).

المطلب السابع: الأصوات التي تُصور المُدة الزمنية الطويلة للفعل أو سعته مكانياً

وغالبًا ما يأتي هذا من خلال المد اللازم الطويل، ولكن لا يكفي المد وحده لتصوير ذلك إن لم تتراصف معه حروف أخرى.

والأصوات الممدودة في القرآن الكريم هي ذاتها حروف المد في اللغة العربية، ولكنها في القرآن تأخذ وقتًا أطول في المدَ، خاصة إن لحقها همز أو سكون[1].

وكثيرًا ما يُسهم صوت المد في القرآن الكريم، في رسم صورة المشهد وتجسيدها أمام القارئ، كما هو الحال في الأحداث التي تستغرق زمنًا أو سعة في عناصرها، وكأن صوت المد يعطي للسامع فسحة من الوقت ليتأمل تنوع العناصر التي تحويها اللفظة، أو طول المدة والزمن في الحدث الذي يقصده القرآن، وإليك بعض الأمثلة التي توضح ذلك:

❁ **أولًا: ما جاء في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾** [النازعات: 34] فالطامّة تعني أهوال القيامة التي تَطُمُّ كل شيء وتعلوه كما يَطُمُّ السيل الوادي[2]، وكل حرف في هذه الكلمة يُسهم في رسم صورة المشهد؛ بدءًا

(1) يُنظر ابن بلبان، محمد بن بدر الدين الحنبلي: **بغية المستفيد في علم التجويد**. ص31.
(2) الزمخشري: **الكشاف**. ج4. ص697.

بحرف الطاء الذي يعطيك باستعلائه وانفتاحه الذي يملأ الفم –خاصة حين يكون مشددًا– صورةَ أهول القيامة وقد أطبقتْ على كل شيء وغمرته، ثم يأتي صوت المد في كلمة (الطامَّة) ليصور أحداث القيامة وهي تطم الأشياء شيئًا فشيئًا، والمد الطويل في الألف يعطي مجالًا للسامع لتتراءى له كل تلك المخلوقات التي طمَّها يوم القيامة وغمرها بأهواله ودواهيه، وتزداد الصورة الصوتية لإطباق أهوال القيامة على الناس، حين تنضمُّ الشفتان معا لتلفظ الميم المشددة مع الغنة، والآتية بعد المد الطويل.

ويزيدنا الأستاذ محمد شملول ثقة بصحة هذا التحليل، حين **يقارن بين كلمتي (الطامّة) و(القارعة) –وكلتاهما من أسماء القيامة–، فيُعلِّل لنا سبب خُلُوِّ (القارعة) من المد الطويل، بأن هذا الخُلوّ: «مطلوب بشدة لتحقيق معناها، وهو أنها تقرع آذان الناس، وهو شيء لا يستلزم زمنا، فهو لحظي، ليدل على الفجاءة ولا يحتاج مدًا ولا مُدة»**[1].

❁ **ثانيًا: وبنفس الطريقة تجد وظيفة المد تؤدي دورها التصويري في كلمة (الصاخَّة):** ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: 33]، وسُميتْ القيامة بالصاخة

(1) شملول، محمد: **إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة**. ص201.

لأنها؛ «تصخ الأسماع: أي تصُمها... وأصل الكلمة في اللغة: الصكّ الشديد، وقيل: هي مأخوذة من صخه بالحجر: إذا صكه»[1].

ويقول الأستاذ سيد قطب في تصوير المشهد من خلال جَرْس اللفظة وإيقاعها: «والصاخة لفظ ذو جَرْس عنيف نافذ، يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقًا، حتى يصل إلى الأذن صاخًّا مُلِحًّا»[2].

ونفاذ صوتها ناجم أولًا عن المد الطويل في الألف، ثم من تشديد حرف الخاء الذي يجري معه النفس لأنه مهموس، ولكن التشديد يعطيه شيئًا من العنف، خاصة حين تشعر بتكرره في سقف الحلق، وهو ما يعطي إحساسًا واقعيًا بعملية شق الهواء، والتي تعطيك –في موضعها من السورة– صورة نفخة الصور التي تصخ الآذان وتصمّها.

إن وجود الحرف المشدد بعد الألف الممدودة في كلمات (الصاخة) و(الطامة) و(الحاقة): «يستدعي نسبة عالية من الضغط الصوتي والأداء الجهوري لسماع رنتها، مما يتوافق نسبيًا مع إرادتها في جلجلة الصوت وشدة الإيقاع، فتتناسب شدتها الصوتية مع شدتها الدلالية»[3].

---

(1) القرطبي: **الجامع لإحكام القرآن**. ج19. ص224.

(2) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج6. ص3834.

(3) الصغير، محمد حسين علي: **الصوت اللغوي في القرآن**. ص168–169 بتصرف قليل.

❁ **ثالثًا: وكذلك حين تقرأ كلمة (كافَّة)** من قوله تعالى: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا**﴾ [سبأ: 28] تستشعر المد الطويل اللازم في حرف الألف، فيطوف بك خيالك الذهني في مشارق الأرض ومغاربها، مستعرضًا أجناس الأمم والقبائل والشعوب التي بلغتها رسالة الإسلام.

❁ رابعًا: وفي كلمة (أتحاجّوني) من قوله عز وجل: ﴿**وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ**﴾ [الأنعام: 80] يؤدي المد اللازم في الألف ثم في الواو دوره في استشعار طول المدة الزمنية التي استغرقتها المجادلة بين نبي الله إبراهيم عليه السلام وقومه، كما يُشعرك بشدة استغرابه من محاججتهم في الله عز وجل رغم كثرة الآيات البينات، كما أن التشديد على حرفي الجيم والنون يوحي بشدة الأمر وصعوبته، فكل طرف يُصِرُّ على موقفه ويتشدد عليه في تلك المحاججة، ويحتمي بحجته، وقد ذكروا أن الحجاج في اللغة هو العظم المستدير حول العين يحميها ويقيها، وهكذا يتناغم الصوت الناجم من التشديد مع دلالة الكلمة، ومثل هذه الإيحاءات لا تبعثها كلمة أخرى مثل (أتجادلونني) أو (أتناقشونني).

❁ **خامسًا:** ﴿**أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ**﴾ [الملك: 19] تأملْ في حركة الطير، تجدْه خلال طيرانه في أعالي السماء يزاوج بين حركة

بسط الأجنحة وحركة قبضها، ولكن حركة البسط تكون طويلة جدًا إذا ما قورنت بحركة القبض الخاطفة السريعة، وتأتي الآية القرآنية لتصور لك هذا المشهد، فيأتي المد الطويل في كلمة (صافَّات) ليصور لك فترة بسط الأجنحة الطويلة، في مقابل كلمة (يَقْبِضْنَ) الخالية من المد.

وتزداد روعة البيان القرآني حين تعلم أن **كلمة (صافَّات) جاءت بصيغة اسمية تدل على الثبات، في حين جاءت كلمة (يَقْبِضْنَ) بصيغة فعلية تدل على الحركة**، يقول الزمخشري في ذلك: «فإن قلت: لم قيل: ويقبضن، ولم يقل: وقابضات؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة، لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح»[1].

وبالإمكان ملاحظة وظيفة الأصوات الناتجة عن الحركات المتغايرة على حروف كلمة (يَقْبِضْنَ)، ما بين الفتح والسكون والكسر، وهذا التغاير في تشكيل حركات الحروف، منسجم مع حركات القبض، كذا تأتي صفة القلقلة في حرف القاف الساكن، وهي تقتضي هزَّ الحرف واضطرابه بحركة خفيفة، ليزيد من انسجام الكلمة مع صورة حركة القبض والرفرفة.

(1) الزمخشري: **الكشاف**. ج4. ص581.

وفي ختام هذا المبحث، نُذَكِّر مرة أخرى بأن الجمال الصوتي في القرآن، ما هو إلا الغلاف أو القشرة الخارجية لجماله –بحسب ما سماها محمد دراز–، والتي إن تجاوزناها انكشف لنا وجه ثان من جماله يتعلق بمعانيه وتشريعاته وهديه، يقول دراز في ذلك: «وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه جلَّتْ قدرته قد أجرى سُنته في نظام هذا العالم أن يُغَشِّيَ جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها، انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قوامًا لبقاء الإنسان فردًا وجماعة، فكذلك لمَّا سبقتْ كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم قضتْ حكمتُه أن يختار لها صوانًا يحببها إلى الناس بعذوبته، ويغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة «الحداء» يستحث النفوس على السير إليها، ويهون عليها وعثاء السفر في طلب كمالها، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل»[1].

(1) دراز، محمد عبد الله: **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن**. ص104.

المبحث الثاني

أثر أصوات الحروف في تصوير جوِّ السياق وموضوعات السورة

تناول المبحث المنصرم، أثرَ أصوات الحروف في تصوير معنى الكلمة القرآنية المفردة، أما هذا المبحث، فيتطرق لأثر أصوات الحروف على جوِّ السياق القرآني والمقطع والسورة ككل، وذلك في مطلبين؛ أولهما تصوير جوِّ الموضوع القرآني من خلال أصوات كلماته، والآخر منهما تصوير الفاصلة القرآنية لدلالة موضوع السورة وانسجامها مع إيقاعها.

تصوير أصوات الكلمات لدلالة المعنى العام في السياق

لا يقتصر أثر أصوات الحروف وتناغمها على الكلمة القرآنية المفردة، بل هو متناغم أيضًا مع سياق صوتي متكامل، والسياق الصوتي بدوره متناغم مع المعنى الذي يحمله السياق، ومن الأمثلة على ذلك:

❁ **أولًا:** يَرِدُ في سورة مريم حوار بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم: 45،

46]، والمُلفتُ في هاتين الآيتين أن الكلمات التي جاءت على لسان إبراهيم تفيض لطفًا ورقة من حيثُ معناها، وكذلك أصوات الحروف فيها جاءت رقيقة رخية لينة، في حين تغص الكلمات التي جاءت على لسان والده بالشدة والنفور، وكذلك أصوات حروفها، فالآية التي حكتْ خطاب إبراهيم لأبيه: «تفوح من كلماتها رائحة البُنُوَّة الإنسانية من إبراهيم تجاه والده، وإضافة إلى وجود تسعة مدود في الآية، فإنّ طبيعة الأصوات الرّخوة تناسب مقام الملاينة، فلم يذكر عزّ وجلّ «يصيبك» بل «يمسّك»؛ للطف فعلها من حيثُ المسّ فقط، ولهمس السين فيها، وفي المفردات الخاء والحاء في «أخاف» و «الرحمن»، والأحرف الليّنة كالواو والياء، فإذا جاء ردّ الأب المتغطرس نقرأ كلمات ذات صوت شديد، كلفظة «لأرجمنّك» بجَرْسها الذي يوحي بوقع الحجارة على الجسم لوجود النون، وهي ترد فيها ثلاث مرات، ومرة مدغمة باللام، فتصير شديدة، والجيم كذلك، ووردت الراء مرتين ساكنة، مما يعطي نبرًا قويًا مضافًا إلى طبيعة هذا الحرف الذي يتكرر في أثناء نطقه»[1].

❁ **ثانيًا: ومن بديع الجمال الصوتي في سورة القارعة:** أنك ترى تَكَرُّرَ حرف القاف في الآيات الثلاث الأولى، وهو حرف كما قلنا في مواضع سابقة شديد قوي ثابت، يوحي بقوة القرع ههنا، وهو مناسب ولا شك لشدة النفخة في قرعها الآذان، ثم يختفي حرف القاف في الآيتين الرابعة والخامسة، حيثُ إن

(1) يُنظر ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص195.

القارعة طارتْ لها قلوب الناس فزعًا، فصاروا خِفافًا كالفراش، وانكدرتْ لها الجبال وبُستْ وتطايرت، فصارت كالصوف المنفوش، فتأتي في هذا المقام الحروف الخفيفة مكان القاف الثقيلة، **ثم تعود القاف الثقيلة من جديد عند الحديث عمن ثقلت موازينه، لتناسب ثقل الحسنات وثبات من ثقلتْ موازينه،** ثم تختفي القاف من جديد في المقطع الأخير من السورة لتناسب حال من خفت موازينه، وتحلُّ مكان القافِ خاءٌ خفيفة رخوة، فسبحان الذي أحكم هذا التنزيل.

❁ **ثالثًا: العدول عن القلقلة إلى الإدغام،** وهو ما جاء في قوله عز وجل في معرِض الحديث عن قصة الطوفان: ﴿**وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ**﴾ [هود: 42] فالسياق الدلالي للآية يشير لرغبة نوح عليه السلام الشديدة في ضم ابنه إليه وإلحاقه به، ويُظهر التصوير الصوتي وتناغم أصوات الكلمات مع دلالة السياق في جملة (اركبْ معنا) تلك الرغبة، حيثُ إن الأداء التجويدي للآية يَعْدِلُ عن قلقلة الباء المُشعرِ صوتُها بالاضطراب والاهتزاز، إلى إدغامها في الميم، لتصبح الباء مع الميم حرفًا واحدًا مشددًا مدغمًا مع غنة، وهو ما يُسمى إدغام المتقاربين[1] ويُلفظ هكذا: (اركمَّعنا)، وهذا الإدخال والإدغام الحاصل بين الحرف النافر المضطرب الشديد

(1) تُقرأ بإدغام المتقاربين في بعض القراءات، وبالقلقلة في قراءات أخرى. يُنظر ابن الجزري: **النشر في القراءات العشر**. ج2. ص11. وهي مُدغمة في قراءة حفص المُشتهرَة في بلادنا.

«الباء» وبين الميم، متناغمٌ مع السياق الدلالي للآية، ومتناسق مع مشاعر الأبوة التي يُكنُّها نوح عليه السلام لابنه، فابنه في معزل ونفور عنه، كمعزل الباء عن الميم ونفورها واضطرابها في قلقلتها قبل الإدغام، ولكن نوحًا يريد ضم ولده لحضنه وإدخاله في كنفه كما أُدخلت الباء في الميم وأُدغمتْ. وقراءة الكلمة بالقلقلة في قراءات أخرى لا يشوش على هذه اللفتة، فكما أن قراءة بعض الكلمات بطريقة ما في قراءة ما يعطيها معنى فقهيًا أو دلالة أو حكمًا لا تجده في غيرها من القراءات، فكذلك بعض القراءات تجد فيها لفتة بلاغية غير موجودة في غيرها، دون أن تشوش تلك على هذه.

❁ **رابعًا: العدول عن لفظ، إلى لفظ آخر يناسب السياق** كما في آية الرعد: ﴿ **سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ**﴾ [الرعد: 10].

تجدُ النظم القرآني لم يعدل عن لفظة (سارب) إلى (ظاهر)، رغم أنها تؤدي المعنى المطلوب بحسب ما قد يتوهم القارئ، ويذكر سيد قطب واحدة من الحِكم في ذلك فيقول: «هذه النعومة في جَرْس اللفظ وظله مقصودة هنا **كي لا تخدش الجو**، جو العلم الخفي اللطيف الذاهب وراء الحمل المكنون والسر الخافي والمستخفي بالليل والمُعقبات التي لا تراها الأنظار، فاختار اللفظ الذي

يؤدي معنى التقابل مع المستخفي، ولكن في لين ولطف وشبه خفاء»[1] وذلك لأن لفظة (سارب) مبدوءة بالسين المهموسة ثم الألف المرققة تبعًا للسين، ثم الراء المرققة بسبب الكسر، فهي خفيفة لطيفة على اللفظ إذا ما قورنت بلفظة (ظاهرٌ)، المبدوءة بالتفخيم الثقيل بسبب حرف الظاء، ثم الألف المفخمة تبعًا للظاء، يليها الراء المفخمة أيضًا بسبب تنوين الضم، ورغم أن كلمتي (سارب) و(ظاهر) تؤديان الوظيفة الدلالية للمعنى المقابل لكلمة (مستخف)، إلا أن (سارب) أنسب من (ظاهر)؛ لمناسبة صوتها لجو السياق، ولأن السارب هو المارُّ في سربه أو الظاهر في طريقه[2]، وهو أشد ظهورًا من مطلق كلمة (الظاهر)، فيكون أقوى في تأدية وظيفة المقابلة بين الخفي والظاهر، **وبهذا تكون لفظة (سارب) أبلغ في هذا السياق من حيث دلالة المعنى ومن حيث تناغم الصوت.**

❁ **خامسًا: تكرار حروف التاء الشديدة لتصوير فظاظة أولاد يعقوب عليه السلام**، فعند تلاوة هذه الآية من سورة يوسف: ﴿**قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ**﴾ [يوسف: 85] بإمكانك أن تلاحظ الصوت الانفجاري في الكلمات الثلاث المتتالية (تَاللهِ- تَفْتأ- تَذْكر): «فالتاء من الحروف المتفجّرة، وإذا كانت مفتوحة اتسعتْ رقعة انفجارها، فإذا

(1) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج4. ص2049.

(2) الهروي: **الغريبين في القرآن والحديث**. ج3. ص882.

وقع بعدها سكون كان هو القرار الذي يمسك هذا الدّويّ الحادث من التفجير (تل- تف- تذ)»[1]، وهذه الأصوات الانفجارية تصور لك نبرة الشخص الذي يريد توبيخ شخص آخر، فتخرج الكلمات من فمه فظة عنيفة، تحاكي فظاظة أصوات أولاد يعقوب عليه السلام وهم يُنكرون على أبيهم تعلقه الشديد بيوسف، وبإمكانك أن تحس باندفاع الهواء بقوة في هذه المقاطع (تَاللهِ- تَفْتأ- تَذْكر) فكأنها الصورة الصوتية لمشهد التعنيف والتأنيب.

❁ **سادسًا: مناسبة حرف السين للأجواء الرخية الندية،** وبالإمكان لَحْظُ ذلك في هذا المقطع من سورة التكوير: ﴿**فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾ [التكوير: 15 – 18] وهو مقطع يصف الليل بهدوئه وسكونه وكذا ساعات الصبح الأولى حيث الرخاء والنداء والهدوء، فتأتي فاصلة السين المهموسة لتصور لك صوت الأجواء في تلك الأوقات: «وحين تتسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلها مثلما تستريح إلى خفة وقعها»[2].

❁ أما سورة العاديات فتجد فواصلها الثلاث الأولى مختومة بحرف الحاء (ضبحًا) (قدحًا) (صُبحًا)؛ وذلك أن هذه السورة تصف في مطلعها مشهد الخيل

---

(1) ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. ص233. وعزاها لعبد الكريم الخطيب في كتابه: **الإعجاز في دراسات السابقين**. ج2. ص273.

(2) الصالح، صبحي: **مباحث في علوم القرآن**. ص335..

التي تفور بالحركة والنشاط والقوة، والخيل حين تعدو يخرج منها صوت الضبح[1] وقد وصف ابنُ عباس صوت الضبح هكذا: "احْ احْ"[2]، وهو صوت يسمعه الفارس حين تسرع به خيله، فجاءت فواصل آيات السورة الأُوَل بالحاء؛ لتصور المشهد صوتيًا وتتناغم مع سياق الآيات.

ثم أن الضبح من معانيه الإحراق[3]، ويُطلق على الشيء الذي غَيَّرتْ النار لونه، كما قال الشاعر:

وضبحًا ضبته النار في ظاهر الحصى ... كباقية التنوير أو نقط الحبر[4]

فلفظ "الضبح" أنسب من "الصهيل" ليس لأجل المناسبة الصوتية فقط، بل لأنه يناسب جو المعركة والحرب وتطاير الشرر الذي يُحدثه ارتطام حوافر الخيل في أرض المعركة كما صورت الآيات: ﴿**فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا**﴾ [العاديات: 2]، فكلمة (الضبح) ناسبت السياق من حيث تصوير صوت الخيل، ومن حيث قدح الشرر، وهذا لا تحققه لفظة (الصهيل) ولا غيرها.

---

(1) قال الفراء: "الضبيح: أصوات أنفاسها –الخيل– إذا عدون" (الفراء: **معاني القرآن للفراء**. ج3. ص284).

(2) الطبري: **جامع البيان في تأويل القرآن**. ج24. ص560.

(3) قال الفراهيدي: "ضبحت العود بالنار: إذا أحرقت من أعاليه شيئا، وكذلك حجارة القداحة إذا طلعت كأنها محترقة: مضبوحة" (الفراهيدي: **العين**. ج3. ص109).

(4) الباهلي: **ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر الباهلي**. ج2. ص944.

تصوير الفاصلة القرآنية لدلالة موضوع السورة وانسجامها مع إيقاعها

الفاصلة القرآنية: هي الكلمة القرآنية التي تأتي في آخر الآية، أو تفصل بين الكلام[1]، وهي في الغالب تأتي على حروف متشابهة أو متقاربة، والوقوف على الفواصل القرآنية يُحدث إيقاعًا في نفس السامع، **وهو إيقاع لا تقتصر وظيفته على الجمال الصوتي، بل تتعداه إلى الإسهام في إشاعة جو صوتي يُقَرِّب المعنى العام للسورة، ويناسب موضوعاتها.**

❁ وأُمَثِّل على ذلك بما أبدعه الأستاذ سيد قطب عند حديثه عن فاصلة سورة مريم ومناسبة فواصلها لموضوعاتها، فحين تذكر السورة زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم الصلاة والسلام، تأتي فاصلة الآيات هكذا: (رضيًّا)، (سريًّا)، (حفيًّا)، (نجيًّا)، «وهي فواصل فيها عمق ورخاء ولين يناسب أجواء الرحمة التي تَعُمُّ عائلة آل عمران، فإذا انتهتْ القصص وجاء التعقيبات الإلهية والتقريرات بشأن حقيقة عيسى وبشأن العقيدة، يختلف نظام الفواصل والقوافي، فتطول الفاصلة، وتنتهي القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف، لا بالياء الممدودة الرخية، وتأتي الفواصل هكذا: (يمترون)، (كن فيكون)، (مستقيم)، (عظيم)، حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص مع إبراهيم عليه السلام، عادت القافية الرخية المديدة: (نبيًّا) (سويًّا) (حفيًّا)، حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام، تغير

(1) يُنظر الزركشي: **البرهان في علوم القرآن**. ج1. ص53.

الإيقاع الموسيقي وجَرْس القافية، فتجيء فيها الفاصلة مشددة دالًا في الغالب (مدًّا)، (ضدًّا)، (إدًّا)، (هدًّا)، أو زايًا: (عزًّا)، (أزًّا)، وهكذا يسير الإيقاع الموسيقي في السورة وفق المعنى والجو ويشارك في إبقاء الظل الذي يتناسق مع المعنى في ثنايا السورة، وفق انتقالات السياق من جو إلى جو ومن معنى إلى معنى»[1].

❁ وفي سورة محمد والتي موضوعها الأساسي القتال، حتى إنها سميت: «سورة القتال»[2]، تأتي فواصلها مناسبة لوقع القتال وشدته: «وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة: «أَعْمالَهُمْ. بالَهُمْ. أَمْثالَهُمْ. أَهْواءَهُمْ. أَمْعاءَهُمْ ..»، وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء : «أَوْزارَها. أَمْثالُها. أَقْفالُها ...»، وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها»[3].

❁ ومثل ذلك أيضا: حرف السين المهموسة في سورة الناس: ﴿**مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاس**﴾ [الناس: 4، 5] والوسوسة هي

---

(1) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج4. ص2300–2302 بتصرف.

(2) يُنظر السمعاني: **تفسير السمعاني**. ج5. ص167. والقرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**. ج16. ص223.

(3) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج6. ص3280.

«الصوت الخفي» [1]، وقال السمين الحلبي: «والشيطان يوسوس فيهمس بوسواسه في صدور بني آدم»[2]، وقد تكرر حرف السين بشكل مُلفت في سورة الناس؛ لأن تكرار صفة الهمس في حرف السين يجسد الصورة الصوتية لوسوسة الشيطان.[3]

❁ وفي سورة المسد التي تذكر أبا لهب، وتقابل بين إمساكه الشديد بالمال، وبين إمساك النار به وقبضها عليه، وإحاطة رقبة زوجته بحبل من مسد، إمعانًا في إذلالها وإمساكها وحبسها في النار، تجد السورة يكثر فيها حرف الباء، وهو حرف يخرج عند انطباق الشفتين مع شِدة، على عكس حرف الميم الذي يخرج من ذات المخرج ولكن مع لين، فيناسب حرف الباء في إمساكه وشدته موضوعَ السورة التي خُتمت كل آية من آياتها بحرف الباء، بل إن الآية الأولى وحدها تكررت فيها الباء خمس مرات[4] ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: 1].

وأمثال ذلك كثيرة مبثوثة في القرآن، لا تخفى على من كان له ذوق أو ألقى السمع لآياته وهو شهيد، وهكذا هي سائر فواصل القرآن تشدك أنغامها؛

---

(1) النسفي: **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**. ج3. ص700.

(2) السمين الحلبي: **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**. ج4. ص260.

(3) هذا المثال سمعته من الدكتور محسن الخالدي حفظه الله، ولم أجده في أي من كتب علوم القرآن ولا التفاسير التي تسنى لي الاطلاع عليها.

(4) كنت قد سمعتُ كلامًا قريبًا من هذا في محاضرة مرئية للدكتور أحمد نوفل حفظه الله.

لتدرك ما في بطون آياتها من هدايات وحكم بالغات وتوجيهات نيرات، **وليست وظيفتها مقتصرة على ذلك النغم الصوتي الجذاب، بل لها قبل ذلك مقاصد أخرى؛ من بلاغة النظم، ومراعاة الترتيب والتأخير، والانسجام مع غايات أخرى، تتعلق حينا بهدف السورة وموضوعاتها، وحينا آخر بحِكمٍ ولطائفَ لا تُدرك إلا بإعمال الذهن وعمق التدبر وطول التأمل والتفكر.**

خاتمة ونتائج

بعد هذه الجولة العاجلة، في هذا الروض البهيج من جمال الصوت القرآني وتصويره لدلالة كلماته وتعبيراته، يمكننا أن نخلص إلى النتائج الآتية:

❖ تحدث اللغويون قديمًا وحديثًا عن علاقة أصوات الحروف بمدلولاتها، وهي ظاهرة لها شواهدها في كل اللغات.

❖ لم تتسع دائرة الاختلاف حول علاقة أصوات الحروف العربية بدلالتها –كما هو الحال في لغات أخرى– نظرًا لثراء اللغة العربية واستفاضة شواهدها في هذا المجال.

❖ تتراصف حروف القرآن في الكلمة الواحدة لتؤدي عدة وظائف في آن واحد.

❖ من وظائف أصوات الحروف في القرآن: تصويرُ معنى الكلمة تصويرًا حسيًا، وكذلك التناغمُ الموسيقي مع سياق الآيات وموضوعات السورة، فضلًا عن وظائف أخرى تتعلق بدقة المعنى، أو بإعجاز تشريعي أو توافق عددي أو غير ذلك.

❖ التناغم الصوتي في القرآن كان أول ما شدَّ العرب له، وهو أول مظهر من مظاهر إعجازه.

❖ كان للمتقدمين من العلماء إشاراتٌ مهمةٌ في الإعجاز المتعلق بأصوات الحروف ومناسبتها لمعاني كلماتها ولسياقاتها في سورها، لكن إبراز هذا اللون من الإعجاز وإظهاره جاء على يد المُحدثين من العلماء.

❖ العلماء تدرجوا من الحديث عن إعجاز الآية في السورة، ثم إعجاز الجُملة في الآية، ثم إعجاز الكلمة في الجُملة، ثم إعجاز الحرف وصوته في الكلمة.

❖ على الدارس أو الباحث، وكذا المتدبر في القرآن أن يلتزم ببعض الضوابط المتعلقة بهذا الوجه من وجوه الإعجاز البياني، أهمها: مراعاة قواعد التجويد وصفات الحروف ومخارجها، والاستقراء التام قبل التقعيد، وعدم الاكتفاء بالانطباع الشخصي، وعدم الجزم في العلاقة بين صوت الكلمة ومدلولها إلا بعد تراصف عدة أسباب صوتية تؤيد تلك العلاقة، وإجراء مقارنات لفظية تثبت دقة التحليل الذي يتوصل إليه، وأخيرا التَضَلُّع من علم التفسير وعلوم القرآن.

❖ تُسهم الحروف المتصفة بصفات الهمس واللين والرخاوة عند تراصفها في كلمة واحدة أو تكررها في مقطع واحد، في تصوير مشاهد الرقة والضعف والرخاء والدعة والهمود والستر والخفاء وما شاكلها.

❖ تسهم الحروف المتصفة بالاستعلاء والإطباق والشدة عند تتابعها في كلمة واحدة، أو تكررها في ذات السياق في تصوير مشاهد العنف والقوة والتهديد وما شابهها.

❖ تؤدي المقاطع الصوتية المكررة، وكذا تنوع حركات التشكيل، في تصوير الأفعال المتعلقة بالحركة سرعة أو بطأ، كما تسهم الحروف المشددة والمضاعفة والمدغمة في كثير من الأحيان في رسم صور الأفعال الثقيلة والبطيئة.

❖ التلاوة الصحيحة للقرآن الكريم من خلال أحكام التجويد لها دور أيضًا في تصوير معاني الكلمات، وبالإمكان تَلَمُّس ذلك من خلال المدود الطويلة والسكتات وبعض أنواع الإدغام، خاصة عندما يعتضد مع تلك الإحكام أسبابٌ صوتية أخرى.

❖ لا يقتصر أثر أصوات الحروف على تصوير مدلول اللفظة فقط، بل يتعداه إلى أداء دور وظيفي إيقاعي يتناغم مع سياق السورة وموضوعاتها، كما يسهم في رسم السمات الشخصة للسورة ككل.

❖ وأخيرا فإن التأمل في أصوات حروف كلمات القرآن هو من أهم ما يعين على تدبره ويزيد من التعلق به والتأثر بمعانيه.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ
لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ
وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعدات الجزري: **النهاية في غريب الحديث والأثر**. تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي. المكتبة العلمية- بيروت. 1399هـ.
2. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعدات الجرزي: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. تحقيق: محمد محيي الدين. المكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت. 1420هـ.
3. الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب: **الأصمعيات**. تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. دار المعارف- مصر. (ط7) 1993م.
4. الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم: **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**. تحقيق: عبد السلام هارون. دار المعارف. (ط5).
5. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد الهروي: **تهذيب اللغة**. تحقيق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي- بيروت. 2001م.
6. الباهلي، أبو نصر أحمد بن حاتم: **ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب**. تحقيق: عبد القدوس أبو صالح. مؤسسة الإيمان- جدة. (ط1) 1402هـ.
7. البدوي، أحمد: **من بلاغة القرآن**. نهضة مصر- القاهرة. 2005م.
8. البقاعي، إبراهيم بن عمر: **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.
9. البكري، حسين محسين: **دراسات في الدلالة القرآنية**. دار دجلة- الأردن. 2012م.
10. ابن بلبان، محمد بن بدر الدين الحنبلي: **بغية المستفيد في علم التجويد**. دار البشائر الإسلامية- بيروت. (ط1) 2001م.
11. ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف: **التمهيد في علم التجويد**. تحقيق: علي حسين البواب. مكتبة المعارف- الرياض. (ط1) 1405هـ.

12. ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف: **النشر في القراءات العشر**. تحقيق: علي الضباع. المطبعة التجارية الكبرى.
13. ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي: **سر صناعة الأعراب**. دار الكتب العلمية- بيروت.
14. ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي: **الخصائص**. الهيئة المصرية العامة للكتاب. (ط4).
15. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني: **مسند الإمام أحمد**. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون. مؤسسة الرسالة. (ط1) 1421هـ.
16. الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد البستي: **بيان إعجاز القرآن**. تحقيق: محمد خلف ومحمد زغلول. دار المعارف- مصر. (ط3) 1976م.
17. الخطيب، عبد الكريم: **الإعجاز في دراسات السابقين**. دار الفكر العربي. (ط1) 1974م.
18. الداني، أبو عمر عثمان بن سعيد: **التحديد في الإتقان والتجويد**. تحقيق: غانم قدوري. مكتبة دار الأنبار- بغداد. (ط1) 1407هـ.
19. الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد: **التيسير في القراءات السبع**. تحقيق: أوتو تريزل. دار الكتاب العربي- بيروت. (ط2) 1404هـ.
20. دراز، محمد عبد الله: **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن**. دار القلم- الكويت. 1404هـ.
21. بني دومي، خالد قاسم: **دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم**. عالم الكتب الحديث- الأردن. (ط1) 2006م.
22. الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتية: **المعاني الكبير في أبيات المعاني**. تحقيق: سالم الكرنكوي وعبد الرحمن اليماني. مطبعة دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد. (ط1) 1368هـ.
23. الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر: **مفاتيح الغيب**. دار إحياء التراث العربي- بيروت. (ط3) 1420هـ.

24. الرافعي، مصطفى صادق: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**. دار الكتاب العربي- بيروت. (ط8) 1425هـ.
25. الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني: **تاج العروس**. تحقيق: مجموعة من المحققين. دار الهداية.
26. الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري: **معاني القرآن وإعرابه**. تحقيق: عبد الجليل شلبي. عالم الكتاب- بيروت. (ط1) 1408هـ.
27. الزرقاني، محمد عبد العظيم: **مناهل العرفان في علوم القرآن**. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. (ط3).
28. الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله: **البرهان في علوم القرآن**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه. (ط1) 1376هـ.
29. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو: **الكشاف عن حقائق غوامض التأويل**. دار الكتاب العربي- بيروت. (ط3) 1407هـ.
30. الزيات، أحمد وآخرون في مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**. دار الدعوتو- القاهرة.
31. أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الخطاب: **جمهرة أشعار العرب**. تحقيق: علي البجادي. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
32. سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر: **الكتاب**. تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي- القاهرة. (ط3) 1408هـ.
33. السمين الحلبي، أبو العباس أحمد بن يوسف: **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**. تحقيق: محمد عيون السود. دار الكتب العلمية. (ط1) 1417هـ.
34. السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد: **تفسير القرآن (تفسير السمعاني)**. تحقيق: ياسر إبراهيم وغينم غنيم. دار الوطن- الرياض. (ط1) 1418هـ.

35. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**. تحقيق: فؤاد علي منصور. دار الكتب العلمية- بيروت. (ط1) 1418هـ.
36. شملول، محمد: **إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة**. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع- مصر. (ط1) 2006م.
37. الصالح، صبحي: **مباحث في علوم القرآن**. دار العلم للملايين. (ط24) 2000م.
38. الصغير، محمد حسين علي: **الصوت اللغوي في القرآن**. دار المؤرخ العربي- بيروت. (ط1) 1420هـ.
39. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الآملي: **جامع البيان في تأويل القرآن**. تحقيق: أحمد شاكر. مؤسسة الرسالة. (ط1) 1420هـ.
40. عباس، تحسين فاضل: **الانسجام الصوتي في النص القرآني**. دار الصادق الثقافية- العراق ودار الرضوان- الأردن. (ط1) 2012م.
41. عبد الرزاق، أبو بكر بن همام الصنعاني: **تفسير عبد الرزاق**. تحقيق: محمود عبده. دار الكتب العلمية- بيروت. (ط1) 1419هـ.
42. أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان: **ديوان أبي العتاهية**. دار بيروت للطباعة والنشر- بيروت. 1406هـ.
43. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: **الفروق اللغوية**. تحقيق: محمد إبراهيم سلم. دار العلم والثقافة- القاهرة.
44. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي. دار الكتب العلمية- بيروت. (ط1) 1422هـ.
45. ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي: **معجم مقاييس اللغة**. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الفكر. 1399هـ.

46. الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد: **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**. تحقيق: أحمد عطار. دار العلم للملايين- بيروت. (ط4) 1407هـ.
47. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: **العين**. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. دار ومكتبة الهلال.
48. الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي: **معاني القرآن**. تحقيق: أحمد النجاتي وآخرون. دار المصرية للتأليف والترجمة- مصر. (ط1).
49. قبها، مهدي عناد: **التحليل الصوتي للنص بعض قصار سور القرآن الكريم أنموذجا**. رسالة ماجستير مُجازة من جامعة النجاح الوطنية- نابلس. 2011م.
50. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: **الجامع لإحكام القرآن**. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم إطفيش. دار الكتب المصرية- القاهرة. (ط2) 1384هـ.
51. قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. دار الشروق- القاهرة.
52. ابن القيم: **بدائع الفوائد**.
53. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي: **تفسير القرآن العظيم**. تحقيق: سامي سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. (ط2) 1420هـ.
54. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البغدادي: **النكت والعيون**. تحقيق: السيد بن عبد المقصود. دار الكتب العلمية- بيروت.
55. المصري، محمود بن علي: **العميد في إحكام التجويد**. تحقيق: محمد قمحاوي. دار العقيدة- الإسكندرية. (ط1) 1425هـ.
56. مسلم، أبو الحسن بن الحجاج القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي- بيروت.
57. ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي: **لسان العرب**. دار صادر- بيروت. (ط3) 1414هـ.

58. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد: **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**. تحقيق: يوسف بديوي. دار الكلم الطيب– بيروت. (ط1) 1419هـ.
59. الهروي، أبو عبيد أحمد بن محمد: **الغريبين في القرآن والحديث**. تحقيق: أحمد فريد المزيدي. مكتبة نزار مصطفى الباز – السعودية. (ط1) 1419هـ.
60. ياسوف، أحمد: **جماليات المفردة القرآنية**. دار المكتبي– دمشق. (ط2) 1419هـ.

وهكذا كل حرف وكل لفظة في القرآن تؤدي وظيفتها الصوتية الإيقاعية الجمالية، في نفس اللحظة التي تؤدي فيها وظيفتها المعنوية الدلالية، وهي مع هذا وذاك، لها وظائف أخرى متعلقة بحكم شرعي، أو معنى تربوي، أو خُلق اجتماعي، أو وجه من وجوه الإعجاز القرآني، مما لا يكون إدراكه ولا إحاطته إلا بتأمل عميق، وفتح من العليم الكريم على من يشاء من عباده، ولو رُمْتَ استبدال لفظة مكان لفظة، أو حرف مكان حرف، لتعطل كثير من تلك الوظائف، تمامًا كما لو رام طبيبٌ تغيير موضع العين عن موضعها الذي جعلها الله فيه أو عن شكلها، لتعطلت كثير من وظائفها